

التجسس وإفشاء الأسرار بين الحِل والحَرمة د. توفيق يوسف الوائلي

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وسيد النبيين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.
أما بعد :

فللإنسان نفس وذات، وشعور وإحساس، وأعماق وأسرار، يجب أن تحترم، وألا يقتحم عليها حرما وحماها، وقد حرص الإسلام على عدم اقتحام الذاتية الإنسانية، فحرم التجسس على عورات الناس، وكشف أسرارهم، سواء أكان هذا بالتطلع أم بالاستنصات والاستماع، وسواء أكان ذلك من الأفراد والجماعات أم من الحاكم والمستول، وذلك لورود النهي عن التجسس وفضح الأسرار في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

كما أن التجسس وفضح الأسرار مفسدة اجتماعية كبيرة، تؤدي إلى التقاطع بين الأصدقاء، فلا رعاية للمودة ما لم تكن هناك رعاية للحرمات.

والأفراد والجماعات والأمم - اليوم - تجري مسعورة لاهثة الأنفاس متسارعة الخطوات إلى أطماعها، مدمرة في طريقها كل القيم والأعراف الكريمة، التي كانت تحفظ على الإنسان استقراره في الحياة، لقد أريق في طريق الأطماع والصراعات كل خصوصيات الإنسان المعاصر، واخترعت

وسائل الاستنصاف والاستماع التي تفضح الحرمات، وتكشف الأسرار، وتهتك الحجب، واستغلت خصوصيات الإنسان في إذلاله، والضغط عليه، وسلب حرية، وأصبح آلة في يد عصابات السطو على الحرمات، تروعه وتقهره وتستبيحه.

وقد أخذ جل هذه الأعمال شرعية تحت أسماء مستعارة، منها: حرية النقد، وحرية الصحافة، وكشف المنحرفين... الخ.

والتوجه الإسلامي في تحريم التجسس وكشف الأسرار فريد في منهجه، عظيم في تعاليمه، حكيم في أساليبه، حفظ كرامة الإنسان، وصان خصوصيته، واحترم أسرارهم، إلا إذا أبدا صفحته، وأضر بغيره.

ومن هنا فلا يجوز التجسس على الناس إلا لقرينة دالة على ريبة أو بناية لا يعرف فاعلها، كما يجوز التحري والتجسس على أهل الرب لمعرفتهم إذا دلت على ذلك قرائن صادقة، وعلم أنهم سيسفكون دما حراما، أو يسرقون مالا، أو يهتكون عرضا.

وبغير ذلك لا يجوز التجسس على الناس، والنظر إلى عوراتهم، أو الاستماع إلى أسرارهم، سواء أكان من آحاد الناس تطفلا، أو إيعازا من المسئولين، لأي سبب من الأسباب، كما أنه لا يجوز من أحد من الناس لخدمة جهة معينة، ما لم يرد بذلك شرع.

فقد أباح الشرع التجسس لأغراض معينة، منها: حماية المسلمين من أعدائهم، وأوجه كوسيلة حربية عسكرية ذات فاعلية كبيرة في إحراز النصر على الأعداء، وأحد أسباب ثبات الدولة، وبقاء سلطانها.

وبحثنا هذا يتطرق إلى التعاليم الإسلامية التي تصون كرامة الإنسان، وتحفظ أسرارهم، وإلى بحث أحكام التجسس في الشريعة الإسلامية، وبيان أقوال العلماء فيه، مع بيان ما كان عليه رسول الله - ﷺ - في استعمال الجواسيس والعيون في الحرب والسلام، حفظا للدولة والأمة والملة من كيد الأعداء، وتعليما لأمتهم، حتى يأخذوا حذرهم من أعدائهم، ويكونوا في مأمن من شرورهم وأهوالهم.

تهديد وإيضاح:

التجسس وإفشاء الأسرار والتوجه الحضاري المادي:

لا شك أن التقدم العلمي اليوم - في الحضارة المادية - جعل التجسس مشكلة أخلاقية، حيث اتسع نطاق التجسس، وكشف كثيرا من الأسرار، وهتك معظم السرائر، وفضح الخصائص الشخصية للأفراد، وتعدى الأعمال الحربية ومستلزمات الأمن القومي، إلى أخص خصائص الإنسان، ولم يصح التجسس وفقا على الدولة أو الجهات التي لها من الضوابط والقوانين ما يحجم هذه المشكلة بعض الشيء، بل تعدى ذلك إلى الصحفيين، والأحزاب المتنازعة، والقوى المتصارعة، وإلى وكالات الأنباء، وشبكات التلفاز، وإلى المهنيين: كالمحامين، وبعض هواة الفضائح الشخصية، وغيرهم وغيرهم.

والسبب في ذلك أمران:

الأول: عدم الوازع الإيماني والقانوني:

والثاني: وجود آلات الكشف، وتعدد أساليبه. حيث توجد الآن كثرة كثرة من أجهزة الكشف، مثل كاميرات التصوير التلفزيونية وغيرها، بحجم علب السجائر، ولا يزيد قطر عدستها عن نصف ميليمتر، ولا يختلف مظهرها عن غلبة السجائر، كما يوجد ميكروفونات وأجهزة تسجيل داخل ساعات اليد، كما توجد الآن كاميرات تصوير حديثة بحجم الولاة، نستطيع التقاط صور ملونة، وبدقة متناهية، حتى في الظلام.

وقد كانت هذه الأجهزة - إلى عهد قريب - من مستلزمات الجواسيس وعناصر الأمن الوقائي والمخابرات، لكنها اليوم متوافرة في الأسواق الأمريكية والأوروبية.

وأجهزة تنصت تسمع وتسجل على بعد عشرات الكيلومترات، وأجهزة تنصت على التلفزيونات، تستطيع أن تسجل لآلاف الأجهزة في لحظة واحدة، موجودة في الأسواق، تباع كما تباع قطع الصابون أو الحلوى.

وفي شهر يونيو سنة ١٩٨٨م خلال الاجتماع السنوي لرؤساء التحرير والمحربين في مدينة مينا بوليس، أقيم معرض لهذه الأجهزة السرية عالية الكفاءة، التي أثبتت فائدتها القصوى، سواء لمراسلي الصحف أو مراسلي شبكات التلفزيون. انقلاباً في دنيا المعلومات^(١).

الواقع أن الكاميرات السرية ليست ظاهرة خطيرة وفقط، بل ظاهرة انقلاب في دنيا المعلومات والقضايا المدنية والسياسية أيضاً. وكذلك في القضايا الأمنية وظواهر الانحراف.

ففي بواكير الستينات كان العاملون في مسلسل «تقارير» الوثائقي الذي بثته شبكة تلفزيون «مس بي أس» الأمريكية يخفون كاميرات وأجهزة تسجيل سرية في حقائبهم، لتصوير خبراء فتح الأقفال، ومروجي المخدرات، والمومسات، والأشقياء.

وبعد ذلك تدرج الأمر إلى استعمال هذا الأسلوب في القضايا السياسية، فنشرت صحيفة «هيرالد» في ميامي أواخر الستينات ذلك التقرير المثير، المعزز بالصور عن شقة السناتور غاري هارت في واشنطن، وكان من شأنه أن تراجع الحزب الديمقراطي عن ترشيحه لمنصب الرئاسة، وبعد ذلك أقبل الصحفيون على اقتناء هذه الأجهزة السرية، وظهرت ترسانة متطورة من الكاميرات والميكروفونات التي تتيح التقاط الأفلام، وتسجل الأصوات، دون إثارة الشكوك، ويقول المحامي بول هانكوك وكيل عدة صحف ومحطات تلفزيونية: إن هذه التكنولوجيا الحديثة تطرح قضايا قانونية وأخلاقية لم يواجهها الصحفيون قبل عشرين عاماً^(٢).

وقد لجأت محطات تلفزيونية كثيرة لاستعمال كاميرات سرية، لتصوير الكثير

(١) انظر جريدة الأنباء الكويتية: ١٢/٣/١٩٨٩

(٢) المرجع السابق ص ٥، ١٢/٣/١٩٨٩

من القضائح، ابتداء بموظفين يتناولون الكحول أثناء العمل، وحتى تسويق المخدرات في الشوارع، وقبل بضع سنوات قامت محطة «واكو» التلفزيونية في مدينة مينا بوليس بإخفاء كاميرات سرية في سقف أحد المطاعم، وصورت مساعد النائب العام في المدينة وهو يتقاضى الرشوة، وكان هناك جهاز تسجيل داخل الفازة على المائدة، وقد سجل المحادثة بأسرها، بينما صورت الكاميرات كل ما حدث.

كل هذا يحدث راجا في الجريدة أو محطة التلفاز، وذلك يدر أرباحا كبيرة - بالتالي - على أصحاب هذه الجرائد وهذه المحطات، ويبرر هؤلاء أعمالهم هذه بأنه لا يمكن توثيق الأخبار التي لا يمكن التأكد منها إلا بهذه الطريقة، ولا يمكن نشر خبر ليس عليه دليل، وإلا تعرضنا للمساءلة والمحاكمة القانونية. ويؤكد مدير محطة «واكو» بأنه لا يكلف المصورين والمراسلين القيام بهذه العمليات السرية إلا بعد أن يجيبوا على عدة أسئلة، ومن ذلك مثلا: هل يمكن توثيق الخبر أو القضية أو الحدث دون اللجوء إلى الكاميرات السرية؟^(١).

مبررات وحجج غير أخلاقية:

يدعي بعض من يقومون بمثل هذه الأعمال أنهم لا يفعلونها إلا بقانون معين، ويظهر من التشريع لهذا القانون الذي يدعون: أن كل ما من شأنه أن يوقعهم تحت العقاب القانوني لدولهم يجب تجنبه.

فيقول المراسلون ومخرجو الأخبار: إنهم لهذا يراجعون - عادة - المستشارين القانونيين لمحطات التلفزيون قبل الانطلاق في مهمة التصوير والتسجيل السري.

لكن في معظم الحالات فإن ما يشكل أو يعتبر انتهاكا للخصوصيات هو مسألة تقديرية، تخضع لقناعة وتقدير القضاء في تلك البلد.

(١) الإعلام الصحي ص ٥٠: للمؤلف.

وسائل الضغط والإرهاب:

هذا، وقد استعملت هذه الوسائل المتقدمة للتسجيل والتصوير اليوم في كشف كثير من الأسرار الشخصية، التي تؤثر على مكانة وسمعة أصحابها عند إذاعتها في ابتزاز الكثيرين، وإخضاعهم لتلك القوى التي وراء هذه الأعمال.

كما كانت وسائل للضغط على رؤساء وأصحاب مناصب وشركات، ومسلل الفضائح السياسية والاجتماعية ممتد، وعميق الجذور، يلوي أعناق الكثيرين، ويلعب في دهاليز السياسة القومية والعالمية بمستقبل كبار الساسة والاجتماعيين، بل والموجهين.

العلاقة بين التجسس وهتك الأسرار:

وعلى هذا فالتجسس كما علمنا: هو تتبع الأخبار خفية، لمعرفة الأسرار التي لا يراد إظهارها، وكشف بواطن الأمور، ومعرفة ما خفي منها.

فالتجسس - إذا - هو هتك الأسرار، وكشف ما خفي منها، بدون إرادة الإنسان أو إذنه. وستر الله السرائر عن الناس لحكمة يعلمها سبحانه، واختص نفسه بمعرفتها، وحذر من فضحها إلا بحق. ذلك ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَيْكُمْ﴾^(١).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾^(٢) (٧٨)

(١) الأنعام - ٣

(٢) التوبة - ٧٨

المبحث الأول

التعريف وما يقاربه - وعلاقة الموضوع بالتوجه الإنساني والحضاري

تعريف التجسس:

التجسس لغة: تتبع الأخبار، يقال: جَسَّ الأخبار وتَجَسَّها: إذا تتبعها. ومنه: الجاسوس، لأنه يتبع الأخبار، ويفحص بواطن الأمور، ثم استعير لنظر العين^(١).

ألفاظ متقاربة المعنى:

هناك ألفاظ تطلق ويراد بها معانٍ مقاربة للتجسس، وقد تجتمع معه في بعض المعاني. من ذلك:

١ - التحسس: وهو طلب الخير. يقال: رجل حساس للأخبار، أي: كثير العلم بها، وأصل الإحساس: الإبصار. ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾^(٢). أي: هل ترى، ثم استعمل في الوجدان والعلم بأي حاسة كانت، وقد قرئ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْصُوا﴾^(٣) بالخاء، وقرئ بالخاء أيضا، قال الزمخشري: والمعنيان متقاربان، وقيل: إن التجسس غالبا يطلق على الشر، وأما التحسس فيكون غالبا في الخير^(٤).

٢ - الترصد: وهو القعود على الطريق، ومنه الرصدي: الذي يقعد على الطريق ينظر الناس ليأخذ شيئا من أموالهم، ظلما وعدوانا^(٥).

(١) انظر المصباح المنير في المادة

(٢) مريم - ٩٨

(٣) الحجرات - ١٢

(٤) المصباح المنير، وتفسير الزمخشري ٥٠١٨/٣

(٥) المصباح المنير في المادة.

ويجتمع الترسد والتجسس في أن كلا منهما تتبع لأخبار الناس، غير أن التجسس يكون بالتتبع والسعي لتحصيل الأخبار، ولو بالسماع، أو الانتفال. أما الترسد: فهو الانتظار والترقب لعلم أخبار الناس.

٣ - التنصت: هو التسمع، يقال: أنصت إنصاتا أي: استمع، ونصت له أي: سكت مستعما، فهو أعم من التجسس، لأن التنصت يكون سرا وعلانية، ويكون للتجسس وغيره^(١).

٤ - العيون: والعيون جمع عين، وهو الجاسوس الذي يبحث ليتجسس الخبر، ويسمى ذا العينين، وذو المويتين، قال ابن سيده: والعين هو الذي يبحث ليتجسس. وفي الحديث: أنه بحث بحسبة عينا يوم بدر، أي جاسوسا. ومنه: حديث الحديبية «كان الله قد قطع عينا من المشركين» أي كفى الله منهم من كان يرصدهم ويتجسس عليهم أخبارهم، وبعثنا عينا أي طليعة بعثنا لنا.

٥ - والطليلة: القوم يبحثون لمطالعة خبر العدو، وطليلة الجيش الذي يطلع من الجيش، ليطلع على العدو، وفي الحديث: أنه كان إذا غزى بحث بين يديه طلائع. وهم القوم الذين يبحثون ليطلعوا على العدو كالجواسيس^(٢)، ومادة طلائع قد اتضح أن بينها وبين العيون والجواسيس شبه كبير، وأن هناك فروقا قليلة، فالطليلة لا تقل عن ثلاثة أفراد، وعليها أن تحصل على المعلومات دون قتال إلا عند الضرورة وأن تكون سريعة الحركة خفيفة الأحمال حتى تستطيع أن تؤدي مهمتها.

تعريف الأسرار:

السر: واحد الأسرار، وهو ما يكتُم، والسريّة: هي موضع السر من الإنسان قال تعالى ﴿يَوْمَ تُنْكَرُ السَّرَائِرُ﴾^(٣) أي يوم القيامة، تكشف السرائر، وتعرف

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر في ذلك لسان العرب والصحاح في مادة - عين، طلع، وطليلة.

(٣) الطارق - ٩

الأسرار، وهو ما يسر في القلوب: من النيات والاعتقادات، وغيرها، فيعرف الحسَن منها من القبيح.

ونقول: أسررت إلى فلان أسراراً، وساررت أسراراً، إذا أعلمته بسررك. والسر يطلق كذلك على ما حدث به الإنسان غيره وأسرّه إليه، والأخفى من السر ما حدث به المرء نفسه، وأخطره بباله، من غير أن يخبر به أحداً. وهذا من السر أيضاً. إلا أنه أشد الأسرار خفاءً. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبُ وَهُوَ غَافٍ﴾^(١). وعرف ابن أبي أصيبعة السر بقوله: «كل ما لا ينطق به خارجاً»، وقد أخذ هذا التعريف من قوله ﷺ: «الإثم هو ما حاك في الصدر، وكرهت أن يطلع عليه الناس»، وإفشاء السر: نشره وإظهاره، فهو نقيض الحفظ والكتمان، وكل شيء انتشر فقد فشا. ومنه: فشو الحبر في الورق الرقيق، وفشو الأخبار في الناس: انتشارها^(٢).

كشف الأسرار غريزة فطرية:

كشف الأسرار غريزة فطرية عند الإنسان، لأنه دائماً يطمع إلى كشف المجهول، لأنه يخافه ويرهبه، وهذه الغريزة تسعده إن استعملها في مكانها الصحيح، وتشقيه إذا حاد بها عن الطريق المستقيم. فكان كشف أسرار الكون هو حجر الزاوية في بلوغ البشرية المستوى العلمي المرموق اليوم. والذي بلغته بغريزة حب الاستطلاع. وكثيراً ما أتيح للبشرية فرص كثيرة لتكشف المجهول، إما بواسطة الفكر أو الحس، وكلما كان التحدي قائماً بحجب السر كانت الإرادة أقوى فطرياً في كشف المجهول الحائل دون المعرفة. ومن ناحية أخرى قد يؤدي كشف الأسرار إلى فساد كبير في الجانب الإنساني، ولهذا كان فطرياً أيضاً: أن يحرص الإنسان على حفظ أسرارهِ، سواء أكانت خيراً أو شراً.

(١) ط - ٧

(٢) انظر المصباح المنير في المادة، والفروق في اللغة لأبي حلال العسكري ص ٥٤

فمن الخير: ما ورد في الأثر «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»^(١)،
ومن الشر: «الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٢).

ولهذا كان الحس البشري يأنف من إذاعة أسرار الناس، سواء أكان حساً فردياً
أو جماعياً. وقد عدد الناس من قديم الزمان كثيراً من الفضائل، وكان من أبرزها
في الناس: المحافظة على الأسرار والوعود والعقود. ولا سيما إذا أمنهم الناس
عليها.

السر بين العادة والعقيدة:

لا شك أن الأسرار تختلف من شخص إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع،
ومن زمان إلى زمان. فقد يكون هناك شخص رقيق الشعور يؤثر فيه شيء لا يؤثر
في غيره، أو يسبب له مشكلات لا يسببها لسواه. وقد ترى بعض المجتمعات:
أن الجنس في بعض حالاته شيئاً لا يسبب حرجاً، في حين تراه في مجتمعات
متحفظة شيئاً تقطع دونه الرقاب، وقد يرى شيء معين في زمان ما جريمة،
فيتغير القانون أو العادة فيتبدل الأمر تماماً.

ولكن المعيار العقائدي «الديني» يختلف عن المعيار المدني تماماً، حيث لا
يخضع الأسرار إلى رضا صاحب السر أو العادة أو التقاليد، بحيث إذا تنازل
صاحب الحق كان مقابله في حل من اكتشاف ما يرغب في معرفته، سواء
أكان من دوائر النفس، أو من عورات البدن. ولكن صاحب السر تنحصر
حقوقه في التنازل داخل إطار ما أباحه له الشرع.

(١) رواه الطبراني والعقيلي وابن عدي وابن نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل،
وقال الحافظ المراتي: صحيح الإسناد. فيض القدير ١/ ٤٩٣.

(٢) انظر فيض القدير ١/ ٤٩٥، وقال النووي: إسناده حسن.

المبحث الثاني التوجه الإسلامي في حفظ الأسرار

المطلب الأول

مع الأسرار في الإسلام:

حب الإسلام كثيراً في المحافظة على لشعور الإنساني والجنس البشري، لأن ذلك من أسباب بركي وانصمود في حلقات السمو الإنساني على هذه الأرض، ولأنه من أسباب التكريم الإلهي للإنسان، الذي وكلت إليه الخلافة عن الله في الأرض، لهذا أحاط الله بكرامة هذا الإنسان بحصون وأمانات حتى لا يهتك له ستر، أو يفصح له سر، فشرع له أموراً معينة في ذلك، ينبغي اتباعها. منها: المحافظة على سره، وصون كرامته وعرضه.

درجات الأسرار:

الأسرار ليست في درجة واحدة، فهناك من الأسرار ما تعد من العاديات التي لا يحدث إشواؤها ضرراً في الكرامة، أو إهداراً لمصلحة، أو تقويتاً لمنفعة ولكنه - مع ذلك - يجمل أن لا تنفسي إلا بإذن صاحبها.

من ذلك: ما ورد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه: أن عمر رضي الله عنه حين تأيمنت به حفصة قال لقيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فعرصت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر؟

قال: سأنظر في أمري، فلبث بياني، ثم لقيني فذكر قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا فنقبت أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر؟ فصمت أبو بكر رضي الله عنه فلم يرجع إلي شيئاً، فكنت عليه أوحى مني على عثمان، فلبث بياني ثم خطها أسبي عليه السلام فأنكحتها إياه،

فلقيني أبو بكر فقام لعلك وحدث عني حين عرصت علي حفصة لم أرحم
 بيث شيئا؟ فقلت نعم. قال فإنه لم يمنعني أن أرحم بيث فيما عرصت
 عني لا نسي كنت عذمت أن النبي ﷺ ذكرها فلم أكر لأشي سر رسول
 الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبيلتها. رواه البخاري.

وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال أني علي رسول الله ﷺ وأنا أعب
 مع العمداء - مسلم عليا، بعثني في حاجة، فأطاب علي أمي، فلما حث
 قالت: ما حبسك؟ فقلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالت: وما
 حاجته؟ قلت: إنها سر. قالت: لا تخبرن بسر رسول الله أحدا. قال أنس:
 والله لو حدثت به أحدا لحدثتكم به يا ثابت. رواه مسلم والبخاري.

قال ابن حجر: قال بعض العلماء: كأن هذا السر كان يختص بسوء النبي
 ﷺ، وإلا فهو كمن من العلم ما وسع إنسان كتمانها. وقال ابن بطال: لدي
 عليه أهل لعنهم أن السر لا يباح به إذا كان على صاحبه منه مصرة، وأكثرهم
 يقولون: إنه إذا مات لا يلزم من كتمانها ما كان يلزم في حياته، إلا أن يكون
 عليه فيه غصاصة.

قلت: الذي يظهر انقسام ذلك بعد الموت إلى ما يباح، وقد يستحب ذكره،
 وهو كرهه صاحب السر، كأن يكون فيه تركية له، من كرامة، أو منقبة، أو نحو
 ذلك. وإلى ما يكره مطلقا، وقد يحرم، وهو الذي أشار إليه ابن بطال. وقد
 يجب، كأن يكون فيه ما يجب ذكره، كحق عليه كان يعدر بترث القيام به،
 فيرجى بعده إذا ذكر لمن يقوم به عنه أن يفعل ذلك^(١).

والذي يظهر لي أن السر الذي كان أنس مستأما عليه كان سرا عاديا، لأنه لا
 مستأمن صغير يدعب مع الصبيان عني سر كبير يراد كتمه علي تأكيد، ولكن أنس
 رعم ذلك - لا يريد أن يقشي سر رسول الله ﷺ، وكذلك ما كان من سر
 رسول الله الذي علمه أبو بكر رضي الله عنه، فإنه كان سرا عاديا وهو

(١) فتح الباري ١١/٨٢ ط دار المعرفة

ذكره لحفصة ولو ذكره أبو بكر ربما سر عمر به، وأدخل عليه لبهجة، ولكنه يريد أن يكتم السر ولو كان قليلا حتى يخبره به رسول الله ﷺ

وهناك أسرار أكثر حرما، من ذلك إفتشاء سر رسول الله ﷺ من إحدى روحائه على ما حكاه القرآن الكريم بقوله ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلىٰ نَعِيسِ أَرْوَاحِهِ، حَيًّا فَلَمَّا بَيَّاتَ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ نَعَصَهُ وَغَرَضَ عَنْ بَعِيسٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْتَ هَذَا قَالَ نَبَّأَى الْعَلِيسُ الْحَبِيرُ ﴿٢﴾﴾ ١١ نُبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا ﴿١١﴾ اعترى الإسلام ذلك جرما يجب التوبة منه، لأنه يتعلق برسول الله ﷺ.

أسرار غير عادية:

هناك هي معلط عن أشياء معينة تدور كلها حول كشف سر المسلم وهتك ستره من تلك الأشياء: تنع عورة المسلم، والتجسس عليه، ورميه بالسوء، والعيبة، والسب، وعدم ستره فيما يفصح به ويرل به الكبر، سوء أعراف الإنسان هذا السر من أخيه عن طريق معين، أو من صاحب السر نفسه فقد وردت في ذلك آثار تحتمه وتؤكد عليه، وترغب فيه، منها:

قول الرسول ﷺ «من فرح عن مسلم كربة فرح الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة.»

وفي رواية: «ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة» روى مسلم وقوله ﷺ «لا ستر عند عدا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة» روى مسلم.

(١) المنعوم - ٣

وقوله ﷺ: «من ستر عورة فكأنما استحيا مؤدة من قبرها». أبو داود
والنسائي^(١).

طلب الشارع الستر وتأكيده على ذلك

طلب الشارع من لمسلم استر على أخيه المسلم غير المجاهر، وأكد على ذلك، حتى إن بعض العلماء أباح الكذب للستر على المسلم قال العراقي رحمه الله قال ﷺ: «ليس بالكذاب» من يصلح بين ثنين فقل حير^(٢)، وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس، لأن ترك الكذب واجب، ولا يسقط الواجب إلا بواجب أكد منه. ومن ذلك: كذب الرجل في الحرب. ومن ذلك أن يستر عورت المسلمين كلهم، وهذا ما وصحه ابن حجر بقوله الكذب قد يباح وقد يجب والصابغ عبد العراقي قال ﷺ: «ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة»^(٣)، وقال: «لا يستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة»^(٤)، وقال أبو سعيد الحدرى رضي الله عنه قال ﷺ: «لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيستره إلا أدخله الله الجنة» وقال ﷺ: «لهرال الذي جاء بماعر ليعترف بحد الرب» «هلا سترت علة ثوبك؟» ثم قال رحمه الله وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشارع لستر العواحيش، فإن أحشها الرأ وقد بيط بأربعة من لعدول يشاهدون ذلك منه في ذلك منها، كالمروود في المكحلة، وهذا لا يتمق. وإن علم انقاصي نفسه تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسسه على العصاة من حلفه بتضييق الطريق في كشفه!^(٥)

-
- (١) أبو داود ٤٨٩١، وأحمد ٤/١٤٧، ١٥٣، والحاكم ٤/٣٨٤
(٢) رواه البخاري ٥/٢٢٠ في الصحيح، ومسلم رقم ٢٦٠٥ في البر والصلة، وأبو داود ٤٩٢٦ والترمذي ١٩٣٩ في البر والصلة، وجامع لأصوله ١٠/٦٠٤
(٣) رواه مسلم ٢٦٩٩ في الذكر والدعاء، وأبو داود رقم ٤٩٤٦، والترمذي رقم ١٤٢٥ في الحدود، ورواه ١٩٣١ في البر والصلة، ورواه ٢٩٤٦ في القراءات
(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٥٩٠ في البر والصلة
(٥) إحياء علوم الدين ٢/١٩٩، ٢٠٠ ط المصرفة

المطلب الثاني المحافظة على هبة المسلم

ويستتبع ذلك ما يلي:

١ - عدم تتبع عورة المسلم:

انعوره - ما يستقبح ظهوره للناس، حسيا كان - كالعورة المعطاة والشبهات الخلقية - أو معنويا، كسبي الأفعال والأقوال.

ومعني عدم التسع: عدم الاستشراف إليها، أو التطفل في البحث عنها، أو استقصائها، أو تتبعها، والحرص على ذلك. أو هتك ستره بنظر أو سمع أو غير ذلك وقد ستر الله عليه فهو في ستره.

فعني الحديث عن رسول الله ﷺ «أن الله إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة، وإن كشف في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى» الترمذي، وابن ماجه وقال الحاكم «صحيح» ولمسلم «لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة».

وقد نهى الرسول ﷺ عن تتبع عورات المسلمين، فقال ﷺ «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عورتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع لله عورته يعصمه، ولو كان في جوف بيته»^(١).

وقال ﷺ لمعاوية «إنك إن تتبع عورات الناس أفسد بهم، أو كدت تفسد بهم» أبو داود بإسناد صحيح^(٢).

(١) أخرجه الموي في السنن ١١٤/١٣

(٢) أبو داود ٤٨٨٨ في الأدب، في النهي عن التتبع، والحاكم ٣٧٨/٤، وقد ورد بمعناه من أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الأمير إذا ابتغى الرية في الناس أفسد» أخرجه أحمد ٦/٤، وأبو داود ٥٨٨٩ في الأدب، والحاكم ٣٧٨/٤

ولا يتجسس أو يظن، أو تسمع ويهتك الأسرار التي قد سرها الله على صاحبه
«إياكم والظن».

وأخرج أبو داود وجماعة عن ريد بن وهب، قلنا لاس مسعود هل لك في
بوليد بن عمة بن أبي معيط تفطر لجنبه حمرا؟ فقال اس مسعود قد بهينا عن
التجسس، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به^(١).

قد يحمل حب النبي عن المكر على التجسس، وبني لناهي هذه تعليم
المشددة في ذلك، فيعذر مرتكبه، كما وقع ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله
عنه أخرج الحرائضي في مكارم الأخلاق، عن ثور الكندي أن عمر - رضي الله
عنه - كان يعمر بالمدينة، فسمع صوت رجل في بيت يتعشى، فتسور عليه،
فوجد عنده امرأة، وعنده حمرا فقال يا عدو الله، أظنت أن الله تعالى
يسترك وتب على معصية؟ فقال وأنت يا أمير المؤمنين، لا تعجل علي، إن
كنت عصيت الله تعالى واحدة، فقد عصيت الله تعالى في ثلاث، قال
سبحه «ولا تجسسوا» وقد تجسست، وقال تعالى «وأتوا البيوت
من أبوابها» وقد تسورت، وقال جل شأنه «لا تدخلوا بيوتا غير
بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها» ودحت بغير إذن

قال عمر رضي الله عنه متذكرا ذلك فهل عندك من خير إن عموت عليك؟
قال: نعم، فعفا عمر - رضي الله عنه -، وخرج وتركه^(٢).

٣ - عدم غيبته أو رمية بالسوء:

بهي لحق سبحانه وتعالى عن عيب المسلم، فقال تعالى «وَلَا يَغْتَابَ الْغَائِبُ
بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أَمْ يُدْرِكُهُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَحِبِّهِمْ مَيِّتًا فَكَرِهْتُمُوهُ»^(٣)

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٩٠ وإسناده حسن، ورواه الحاكم في المستدرک ٢٧٧/٤ وصححه، وأقره الذهبي،
جامع الأصول ٦/٦٥٥

(٢) انظر في ذلك روح المعاني ٩/١٥٧ ط دار الفكر، وتفسير ابن كثير، ٤/٢١٣ ط دار المعرفة، إحياء
علوم الدين ٢/٢٠٠

(٣) المحجرات - ١٢

وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»^(١).

وقال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قل: ذكرك أحبك بما يكره. قيل: أراست إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبت، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». رواه مسلم وأبو داود.

كما يرهف الإسلام من النميمة. فيروي حذيفة رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «لا يدخل الجنة نمام». وفي رواية قتات^(٢).

ومعنى النميمة وحدها كشف ما يكره كشفه سواء أكره المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كره ثالث، وسواء أكان الكشف بالقول، أو الكتاتبة، أو بالرمز، أو بالإيماء، وسواء أكان المنقول من الأعمال، أو من الأقوال، وسواء أكان عبثاً ونقصاً في المنقول عنه، أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره كشفه. بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فيهمي أن يسكت عنه، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع لمعصية تكون ألزم، كما إذا رأى من يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به، مراعاة لحق المشهود له. فإن كان ما يتم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين العيبة والنميمة. أم رادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرح بالحديث، واحصوص في الفصول والباطل، والتفريق بين المسلمين. وقد أمر الله بدرسونه بالصلح بينهم. فقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٣) ﴿فَأَصْدِقُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(٤).
وقال ﷺ: «ألا أحبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟ قال: قسماً بلى. قال: صلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»^(٥)، إن كان ذلك فهو الحرام، وهي الحالقة كما يذكر الحديث الشريف.

(١) مسلم والترمذي

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) البقرة - ١٢٨

(٤) الحجرات - ١٠

(٥) رواه أبو داود ٤٩١٩ في الأدب، والترمذي رقم ٢٥٦١، وهو حديث صحيح، رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، وفي الباب عند الطبراني والبيهقي وذكره السنن في الترمذي والترغيب والترهيب ٢٩٤/٣، وجامع الأصول ٦٦٨/٦

أقوال العلماء فيمن حملت إليه النميمة :

كل من حملت إليه النميمة فعليه ستة أمور :

أولا ألا يصدقها، لأن السام فاسق، مردود الشهادة قال تعالى ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

الثاني أن ينهأ عن ذلك، وينصح له، ويقنع عليه فعله، قال تعالى ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

الثالث: أن يخفضه في الله.

الرابع ألا تظر بأخيك العائب السوء، لقوله تعالى ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

الخامس أن لا يحملك ما حكى لك على التحري والسحت ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

السادس. ألا ترصى لنفسك ما بهيب النمام عنه، ولا يحكي نميته لأحد، فقد روي عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه. أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا، فقال له عمر - إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية. ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٌ مِّثْلُ بَنِمِيمٍ﴾ وإن شئت عفونا عنك. فقال العمري يا أمير المؤمنين، لا أعود إليهابدا^(١).

هذا وقد رتب الإسلام عقوبات رادعة لمقالة السوء. فقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢)، وهذا صيانة للأعراض من التهجم،

(١) روى موطأ عن علي رضي الله عنه، إسناده معلوم الدين ١٥٧/٣

(٢) النور - ٤

وحماية لأصحابها، وقد شدد المراد في تلك العقوبة، وجعلها قريبة من عموية الزنا: ثمانين جلدة، مع إسقاط الشهادة، والوصم بالمسوق.

والعقوبة الأولى: جسدية.

والثانية: أدبية في وسط الجماعة، ويكفي أن يهدر قول القاذف، فلا يؤخذ له شهادة، وأن يسقط اعتباره بين الناس، ويمشي بينهم متهما لا يؤثق بكلامه. والثالثة: دنية، فهو محرف عن الإيمان، خارج عن طريقه المستقيم ذلك، لا أن يأتي القاذف بأربعة شهود، يشهدون برؤية الفعل، أو ثلاثة معه إن كان قد رآه، فيكون قوته صحيحة وهذا ما لا يمكن أبدا في شأن المختبر^(١)

والجماعة المؤمنة لا تحسر شيئا بالسكوت عن تهمة لناس، كما تحسر شيوع الاتهام والترخص فيه، وعدم التحرج من الإدانة به، وتحريرص الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقدرونها، ويطلبونها مسموعة في الجماعة، أو نادرة وذلك فوق الآلام التي تصيب الحرائر الشريفات، والأحرار الشرفاء، وفوق الآثار التي تترتب على ذلك في حياة الناس، وطمأنينة البيوت المستقرة.

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يمشي بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة، فلما أصبح قال للناس: رأيتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعليه؟

قالوا: إنما أنت إمام، فقال علي رضي الله عنه: ليس ذلك لك، إذا يقام عليك الحد. إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود. ثم تركهم عمر ما شاء الله أن يتركهم، ثم سألهم فقال القوم: مقالته الأولى وقال علي رضي الله عنه: مثل مقالته الأولى^(٢) وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان مترددا في أن الوالي هل له أن يقضي بعلمه في حدود الله؟

(١) انظر في ذلك الترغيب والترهيب ٢٨٠/٤

(٢) انظر في ذلك إحياء علوم الدين ٢/٢٠٠ ط المعرفة

فبدلت راجعهم في معرض التقدير، لا في معرض الإحسان، حيلة أن لا يكون له ذلك، فكون قادراً بإحسانه وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لسر المو حش، فإن أفحشها الربا، ومع ذلك لم يأت حتى بالإمام أن يقول فيه ودوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال «لو وجدت شاربا لأحييت أن يستره الله، ولو وجدت سارقا لأحييت أن يستره الله»^(١).

وإن لم يكن السر عورة فإن المحافظة عليه من كمال العروة وكمال الأمانة وحفظ الأسرار على أهل الإيمان، لقول النبي ﷺ «ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأحبه ما يحب لنفسه»^(٢) قال العراقي لا شك أنك تتطهر من أحبك أن يستر عورتك، ويسكت عن مساوئك، ولو أنك ظهر لك من أحبك نقص ما تتضره منه اشتد عيظك وعصك، فما أبعذك إذا كنت تتطهر منه ولا تضمره له، ولا تعزم عليه لأجله. وويل لمن يفعل ذلك في نص كتاب الله حيث يقول في سورة المطففين ﴿وَنَبِّئِِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾^(٣).

وهي الأثر قال عيسى لأصحابه كيف تصنعون إذا رأيتم حاكم نائم فكشف تريخ عن ثوبه؟ قالوا نستره، ونعطيه فقال: بل تكشفون عورته! قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ قال. أحدكم يسمع في أحبه بالكفة فبريد عندها ويشيمها بأعظم منها^(٤).

٤ - عدم إفشاء الأسرار إلى الرؤساء:

درج بعض الناس إلى الوقعة بالغير عند الأمراء والحكام والرؤساء. وهذا

(١) المرجع السابق ص/٢٠١

(٢) البخاري ٥٣/١، ٥٤، ومسلم ٨/١١٥، والترمذي ٢٥١٧، وابن ماجه في المقدمة رقم ٦٦، والمحاظ

في الفتح ٥٤/١، وجامع الأصول ٢٣٩/١

(٣) المطففين - ١

(٤) بحبان عزم الدين ٢١٣/٥ ط المعرفة بيروت. وانظر في ذلك مدافع السلك في طبائع السلك لمحمد بن الأبرق الأنغلي ص ٤٦٧ ط دار الحرية للكتابة

مرض خطير، يقطع الأوصار، ويوعر الصدور، ويضيع الجهود، ويذهب الأخوة بين الناس، ففي رواية للترمذي قال: قيل لخدمة إن رجلاً يرفع الحديث، وفي رواية ينمي الحديث إلى الأمير. فقال حذيفة سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات»^(١).

وأمير والمشتول الذي يسمى إليه شيء في حق إنسان يجب أن يرد ذلك على صاحبه، حتى لا يكون ذلك حلقاً له، كما يجب أن لا يؤثر ذلك في نفسه أو تصرفه. يروي الترمذي وأبو داود عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج على الناس وأنا سليم الصدر».

قال عبدالله بن مسعود: موضح تطبيق الرسول ﷺ لذلك فأتى رسول الله ﷺ بمال، فقسمه النبي ﷺ بين الناس، فأنتهيت إلى رجلين جالسين وهما يقولان والله، ما أراد محمد بقسمته النبي قسمها وجه الله، ولا الدار الآخرة، فشت حتى سمعتها، فأتيت رسول الله ﷺ - فأخبرته، فاحمر وجهه، فقال: «دعي عنك، فقد أؤذي موسى بأكثر من هذا، فصبر».

وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً»

في هذا الموقف الذي يعيب الناس فيه رسول الله ﷺ - بشيء بعيد عن حلقه - ﷺ - فيسمع أصحابي خليل يحب رسول الله ﷺ - ولا يستطيع أن يصبر على الوقوع في شرفه، وهذا الصحابي من أصحاب المارل عند رسول الله ﷺ - ويعلم الرسول صدقه وأمانته وجهه له.

ومع هذا يقول الرسول ﷺ: «لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج عليهم وأنا سليم الصدر»^(٢).

(١) القتات هو الذي يقل الحديث بين الناس ليوقع بهم وهو التمام والحديث رواه البخاري ٣٩٤/١٠ في الأدب، ومسلم رقم ١٠٥ في الإيمان، وأبو طهود رقم ٤٧٧١، والترمذي ٢٠٢٧.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٨٩٣، وأبو داود رقم ٤٨٦٠ في الأدب، باب رفع الحديث من المجلس، جامع الأصول ٤٥٢/٨ ط الحلواني.

يمثل هذا القول المحارم الحكيم بفصل في القضية، ويعلم أصحابه المواقف التي يجب أن يصار إليها في معاملة المسلمين، والصبر عليهم، ولهذا تمثل موسى - عليه السلام - فقال «رحم الله أخي موسى، لقد أودي بأكثر من هذا، وصبر.»

المطلب الثالث

تحمل الأسرار

لأصل في تحمل الأسرار أن يحمل كل إنسان سره، وأن تحافظ كل أمة على أسرارها من الشيوخ، لأن الأولى بالعقل أن يحفظ نفسه مما يضره في نفسه أو يذمه أو ماله وليس هناك من هو أحرص على أمره منه، فإن لم يكن له بد من أن يحمل أحد سره فليحتر من يحفظ هذا السر ويصونه، ممن به صفات الكتمان والتفوى، عافلاً، أميناً، موثقاً، ولا يشته سره إلا إذا كان هناك حاجة لذلك، وليكن في أصيق الحدود، كما لا بد وأن يكون ذلك محكوماً بخلق وشرع وقانون.

ومتحمل الأسرار يتحمل أمانات ثقيلة، وأعباء كبيرة وقد تتطلب مهمهم ذلك، وقد تكون طبيعة عملهم هي التحمل مثل المفتون، والمحامون، والأطباء، والقادة، والجود، والقضاة، والشرطة، والصحفيون، ومن على شاكلتهم. وهذا بالتالي يفرض عليهم سلوكاً معيناً يجب التماسه، حتى لا يضرروا، أو يصاروا، أو يائثموا.

حفظ الأسرار لماذا؟

أولاً. لما في كشف الأسرار من الأضرار في أغلب الأحوال

ولا يسعى لمسلم أن يسعى فيما فيه ضرر أخيه المسلم، لأن ذلك يحرم عليه، ولا يحل له أن يعتمد الإصرار بالناس بغير حق، ولا أن يسعى في أمر يكون سبباً

في إيقاع الصرير بألمه المسلم، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْدَ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانَكُمْ وَإِنَّمَا تُمَيَّا ۝﴾^(١).
والأضرار التي يسببها إفشاء الأسرار متعددة الانجاءات منها
أ - الأضرار النفسية:

تلمس عورات كمحوريات الأجساد، وذلك أن المسلم قد يفعل أمراً مشياً، أو
فعلاً فاضحاً، قد رث قدمه فيه، ثم ستره الله عليه بستره، فإن كشفه إنسان ما
يؤلمه هذا إبلا ما كبيراً، يبرله من أعين الناس، ويفضح أسرته، وقد تسقط
شهادته، ويفسد ذلك ما كان بينه وبين أهله، وأقاربه وأصدقائه ومعارفه.
وقد يصعب ذلك من الرجوع عن الآثام، واسترداد كرمته، لأن الله يعمر
والناس - غالباً - لا يغفرون، ولا يتسامحون.

ولهذا قال الحلبي: في هتك ستر أصحاب الغروب - تحريف أمر الماحشة
على قلب من يشاع فيه، لأنه ربما كان يحشى أن يعرف أمره فلا يرجع إلى ما
أقربه، أو يستره، فإذا هتك ستره اجتراً وأفدم، واتحد ما وقع منه عادة يعسر
بعدها عليه الترويع عنها، وهذا إضرار به^(٢).

هذا، وقد نهى الله تعالى عن المجسس فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ
بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٣)

ونهى النبي - ﷺ - عنه، وقال لمعاوية: «إني إن تمتعت عورت المسلمين
أفسدتهم، أو كذب أن تصدقهم»^(٤) قال بعض السلف كلمة سمعها معاوية من
النبي ﷺ سمعه الله بها^(٥)، يعني استقام له أمر الناس في خلافته بها

(١) سورة الأحزاب - ٥٨

(٢) المنهاج في شعب الإيمان للحلي: ٣/٣٦٤.

(٣) سورة الحجرات - ١٢

(٤) أخرجه أبو داود رقم ٤٨٨٨، وسنده صحيح.

(٥) المرجع السابق ٣/٣٦٢

وقال - ﷺ في هذا المعنى: إن الأمير إذا اتعى الرية في الناس أسددهم^(١) لأن حرمة المسلم في الإسلام عطيمة وسامية، فلا يجوز أن يحدثها أحد بغير حق عن باع قال بطراش عمر - رضي الله عنهما يوماً إلى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك^(٢).

ب - الأضرار البدنية:

لقد يرميه بكشف سره حد أو عقوبة. والأحاديث تندب إلى ستر المسلم ما دام لم يبد للناس صفحته قال ﷺ: «من أصاب من هذه القادورات شيئا فليستر ستره، فإنه من أبدى لنا صفحته أقصا عليه الحد»^(٣)، وكذلك إذا أبدى لشهود صفحته أقصم عليه الحد قال الطرطوشي كم من يظهر سر أرق دم صاحبه، وضع من بلوع مأربه، ولو كتمه أمن سطوته^(٤) قال تعالى حكاية عن يعقوب: «يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا» قال الطرطوشي قص يوسف قصته بحصرة امرأه أنه، فأحبرت إخوته، فكان ما كان مما حل به.

ج - الأضرار المهنية:

لا شك أن شرف الإنسان وطهره دافع حقيقي في إقبال الناس عليه في تحارثهم وفي معاملاتهم، فقد يكون رأس مال الممتحن شرفه وسمعته، فالطبيب والمحامي والمدرس والتاجر والصانع إذا شعر الناس أنه مجروح في عدالته، أو أنه يقضي أسرار عملائه، أو أنه خائن، أو غير ذلك: مما يسوؤه ليرة رلها، فلم تحفظ عليه، قد تكون سببا في إبعاده عن مهنته، والكاتب

(١) أخرجه أحمد ٤/٦، وأبو داود رقم ٤٨٨٩ في الأدب، والحاكم ٤/٣٧٨، وسنده حسن.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٠٣٣ في البر والصلة، وسنده حسن، وله شاهد من حديث أبي هريرة الأسدي.

وقد ذكره البغوي، وأخرجه أبو داود ٤٨٨١، وسنده حسن، والترغيب والترهيب ٣/١٧٧، وقال

الهيتمي في مجمع الزوائد رجاله ثلاث

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ رقم ٦٩٨ ص ٢٤٤، ط المكتبة العلمية.

(٤) بدائع السلك في طبائع الملك ص ٤١٠

مثلا - إذا علم الناس أنه يقشي الأسرار في الشركات أو المؤسسات أبعده الناس عن شركاتهم ومؤسساتهم.

فقد كان لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - كاتب يقال له: «حمران» فاشكى عثمان رضي الله عنه، فقال: «اكتب العهد بعدي لعبدالرحمن بن عوف، فانطلق حمران وقال لعبدالرحمن بن عوف: الشري، فقال عبدالرحمن ذلك الشري، ماذا؟ فأخبره فأخبر عبدالرحمن عثمان بالحر، فقال عثمان رضي الله عنه أعاهد الله لا يكتابي حمران أبدا وبناه إلى البصرة، فلم يزل بها حتى قتل عثمان^(١).

وقال ابن حزم الطاهري عالم الأندلس. إنما يتجالس المتجالسون بالأمانة، فلا يحل لأحدهما أن يقشي على صاحبه ما يكره^(٢).

فكم من موظف فقد وطيفته لعدم أمانته على الأسرار، أو لخيانته في عمله يكشفه عن مكنون عمله للأعداء أو للمترهين.

وكم من حكام أو قواد تركوا ماصهم لتسرب الأسرار من مكنونهم، أو من اجتماعاتهم، أو حقائبهم، وكان يصيبهم الطرد والتشهير، وربما المحاكمة والجس أو الموت.

د - الأضرار المادية:

التجارات والصاعات أسرار، والاكتشافات أصبحت اليوم أسراراً، يؤدي كشفها وإداعتها إلى أضرار مالية كبيرة لأصحاب تلك الأسرار، فكم يكسب أصحاب التجارات من صفقات تتم في ستر ودون ضوضاء، وكم يكسب أصحاب الصاعات من حقائق اكتشفوها، فأدرك عليهم الأموال الطائلة، واعتبروها أسراراً ملكاً لهم، أنفقوا عليها، وسهروا الليالي في اكتشافها، فهم

(١) المرجع السابق ص ٤٧١

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٧

يحرصون عليها لما يؤدي ذلك إلى نفعهم قال - ﷺ - «احرص على ما ينفعك واستعن بالله»^(١)

وربما أدى كشف الأسرار إلى سلب اللصوص أو الظلمة على الأموال، فتسرق، أو تنهب، أو تقتصب.

ثانياً: لأن إفشاءها في أغلب أحواله خيانة للأمانة:

أ - خيانة الزوجية: وردت الأحاديث بحفظ الأسرار الزوجية بين الرجل وزوجته.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ - قال «إن من أشد الناس عدا الله سرقة يوم القيامة الرجل يعصي إلى المرأة، وتمضي إليه، ثم يشتر سره»، وفي رواية لمسلم «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الحديث»^(٢)

حاء في أحبار بعض أهل الفصل أنه سئل عن حال زوجة به كان قد طلقها فتزوجت بعده، فلما سئل عنها قال «مالي ولروحة عيري» عفا عن ذكر سر زوجته السابقة، أو حتى الخوض في شأنها، أمانة وفضلاً.

ب - حبة المجالس. وهو أن يسمع شيئاً في مجلس، فيقل ذلك شيء إلى الغير، وكان يجب عليه أن يكتمه، وفي ذلك يقولون «صدور الأحرار قبور الأسرار»^(٣)

وقيل إن من أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلاها كتمان ما أسر به إليه.

وقيل إن كتم السر يكون من أوجب الواجبات على حاشية السلطان قال الحافظ. من أخلاق الملك أن يكتم أسراراً عن الأب والأخ والروحة

(١) بعض حديث رواه مسلم رقم ٢٦٦٤ في القدر، في الأمر بالقوة وترك الميزر وانظر جامع الأصول ١٠/١٢٠، ورقم ٧٥٩٣

(٢) رواه مسلم. ١٤٣٧ في النكاح، وأبو داود رقم. ٢٨٧٠ في الأدب.

(٣) بدائع الملك في طبائع الملك ص ٤٦٧

والصديق فإن الملك يحمل كل منقوص ومألوف، ولا يحتمل ثلاثة طاعة في ملكه، ومذيعا لأسراره، وخائنا في حرمه^(١).

قال العتيبي أسر معاوية إلى عثمان بن صفية حديث، قال عثمان فقدت لأبي بن أمير المؤمنين أسرا إلي حدثا، فأحدثك به؟ قال لا فقلت ولم؟ قال لأنه من كنتم حديثا كان الحير إليه، ومن أظهره كان الحيار عليه، فلا تجعل نفسك مملوكا بعد أن كنت مالكا. فقئت أيدخل هذا بين الرجل وأبيه؟ قال نعم، ولكن أكره أن تدلل لسالك بإفشاء السر. قال فحدثت به معاوية، فقال: أعتك أخى من رق الخطأ^(٢).

قال ابن نباتة: شكنا بعض الملوك إلى من يثق به أن أسراره تطهر وتغشى، وأنه قد شته عليه من يذيعها، وأنه يكره أن يبال من بريء ما يستحقه الحائن

فدعا بقرطاس بين يدي الملك وكتب فيه أخبارا ملفقة، وقد للميث اختار حواصك واحد واحدا، بواحد واحد من هذه الأخبار، وكتب على الحبر اسم صاحبه الذي أفضيت إليه به فابث تعلم بما شيع منها من أشاعه، وبما يحفي منها من أحفه، فاحذر الأولين، واستتم إلى الآخرين فهم يلبث أن أظهر الحزنة ما أفشي إليهم، وانكمت أخبار الناصحين وما أفشي إليهم يعرف الملك من يفشي سره، فحذره وعاقبه^(٣).

حسين الخادم يفشي سر المأمون بالمال دخل طاهر من الحسين بعد قتله الأمين على أخيه المأمون وكان على رأسه قائما حين الخادم، وكان قد مال الشراب منه، حتى بدأ يروح بما يريد أن يفعله بقاتل أخيه، وتعرعرت عنه بالدموع وانصرف طاهر، وبقي حين الخادم يجمع ما يقوله المأمون فلما ثقل عليه الشراب قال قتلني الله إن لم أقتله فسأله حسين الخادم عن

(١) المرجع السابق ٤٧٠

(٢) المرجع السابق ٤٧١

(٣) انظر المختار من كتاب تنوير الدول لابن تيمية ٤٠٤/٢، تحقيق إبراهيم عبد صليل، مخطوط بكلية الشريعة جامعة الأزهر رسالة ماجستير.

ذلك؟ فقال: ذكرت محمد الأمير «يعني أخاه» وما ناله من لدل فخنقني العبرة،
فاسترحمت إلى الإفاضة، ولن أفلت قاتله طاهر بن الحسين.

بعث طاهر بن الحسين إلى الحسين الحادم بمائتي ألف درهم على أن يقول
به ماداً ذب المأمون في حقه. فأحضره بما قاله المأمون، فرحل هارب قبل أن يقع
به ما يقع^(١).

ويدخل في ذلك: حياة لطبيب بإفشاء سر مريضه، بسبب مرضه، وقد يكون
مرضه بفعل شائن.

ويدخل في ذلك: إفشاء المفتي سر من استغناه في مسألة لا يباح كشفها،
لأنها من شئون السائر، وقد ستر الله عليه، وليس هو جهة قصائية أو بوليسية
ويدخل في ذلك: أسماء السر والموظفون في الدوائر الحكومية أو الأهلية ممن
حملوا الأمانة بحكم وظائفهم، فعليهم كتمان ما يعلمون من شئون وظائفهم إذا
كان في ذلك ضرر حسبي أو معنوي للجهة التي يعملون بها.

ثالثاً: البوح بالأسرار غالباً يكون فيه اتباع للهوى:

قال تعالى - محذراً المؤمنين من اتاع الأهواء المردية ﴿ولا تتبع الهوى
فيضلك عن سبيل الله﴾.

قد تسع الأحبار لمصالح الناس لعداوة أو سوء نية. قال الحليمي: إنما يحرم
على ذلك: الدغل، ورداءة الطبع، وسوء النية^(٢).

وبعض النفوس الردئة تسرع إلى كشف الحائيا، والنسب بعية الناس، وذكرها
معايهم، وخاصة في المحاليس التي لا يتقى فيها الله تعالى، لأحقاق خفية، أو
حسد دفين، وذلك من الهوى. قال العراقي منشأ التقصير في ستر العورة أو

(١) المراجع الناس ص ٣٩٨، وانظر كذلك القصة في الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/ ٣٦٠، وتجارب
الأمم ٦/ ٢٤٩، ٤٥٠.

(٢) انظر في ذلك بصره الحكام، بهامش فتح العلي المالك، فتاوى الشيخ عيسى ١/ ٢١٧، في باب موانع
الشهادة.

السعي في كشفها لداء الدفين في الباطن، وهو الحقد والحسد، فإن الحمود حمود يملأ باطنه الحش، ولكنه يحسه ويحفيه ولا يذنه، إذا لم يجد به مجالا، فإذا وجد فرصة انحل الرباط، وارفع الحياء، وتروشح الباطن بحشه الدفين^(١).

المبحث الثالث

المطلب الأول

الحكم التكليفي للتجسس وهتك الأسرار:

بعد أن تكلمنا على التجسس وإفشاء الأسرار عامة، وذكرنا سعة الإسلام وتوجهه العام في هذه المسألة، ناسب أن نذكر الحكم التكليفي لذلك، حتى تنضبط الأمور في المسائل.

والتجسس وهتك الأسرار تعنيهما أحكام ثلاثة الحرمة، والوجوب، والإباحة.

١ - الحرمة:

فالتجسس على المسلمين وهتك حرمانهم في الأصل - حرام، مهي عنه، لما قدم قبل، ولقول الله تبارك وتعالى «ولا تجسسوا»، لأن فيه تنصع عورات المسلمين ومعانيهم، والاستكشاف عما ستروه. وقد قال - ﷺ -
أيما معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تنصعوا عورات المسلمين، فإن من تنصع عورات المسلمين تنصع الله عورته، حتى يفصحه، ولو في جوف بيته.^(٢)

(١) شرح الإحياء ٢١٦/٥

(٢) الحديث أخرجه الترمذي ٢٧٨/٤ ط الحلي، وقال: حسن غريب.

والأحكام في الإسلام تبنى على الظاهر، لا على الباطن وطلب تتبع العورات. ومما يقوي هذا المعنى ويعضده: ما أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال يا أيها الناس، إن الوحي قد انقطع، وبما نأخذ لأن ما طهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أمهه، وورثه، وليس لنا من سريره شيء، الله يحاسبه في سريره، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمنه، ولم نصدق، وإن قال: إن سريره حسنة^(١).

وقد أجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله تعالى^(٢).

ويهدد فليس على الناس والتحسين وكشف عورتهم وتسجيل أحصائهم بصوت واصوره مهي عنه، ما داموا مستترين غير مجاهدين، وما دام صرهم لا يتعدى إلى تهديد الأمن العام، أو إتلاف المسلمين، كما سيأتي بيانه وقد وردت الآثار بالستر لأمثال هؤلاء:

أخرج همد ولحارث عن الشعبي أن رجلا أتى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال إن بي سة كنت وأدتها في الحاهلية، ثم ستخرجتها قبل أن تموت، فأدركت مع الإسلام فأسلمت، فلما أسلمت أصابها حد من حدود الله بذي، فأحدث الشفرة نذبح نفسها، فأدركها وقد قطعت بعض أودجها، فداويناها حتى برئت، ثم أقيمت بعد توبة حسنة، وهي تحطت إلى قوم، فأحرقهم من شأنه بذي كان فقال عمر أنعمد إلى ما ستر لله فتبديه؟ والله نئ أحرق شأنه أحد من الناس لأجعلك بكالا لأهل الأمصار، من أنكحها نكاح العفيفة المسلمة^(٣).

وعن سعيد بن منصور والسهفي عن الشعبي أن جارية فحرت فأقيم عليها حد، ثم بهم أقنوا مهاجرين. فتألف الحاربة، وحسنت ثوبها، فكنت

(١) روله البخاري

(٢) انظر بيل الأوطار ج ٧ ص ١٠٣-١٠٤

٣، حياة الصالحة ١/٢٣٠ عن كثر قتال ١٥/٢

محطت إلى عمها فبكره أن يروحها، حتى يحضر بها كان من أمها، وجعل يكره
 أن يقضي ذلك عندها، فذكر من أمها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: **يا
 روحوها كما تزوجوا صالحا فتيانكم.**

وأخرج البيهقي والشعبي قال:

حدثت امرأة إلى عمر رضي الله عنه فقالت يا أمير المؤمنين، بي وجدت
 صبي، ووجدت فتيته فيها مائة دينار، وحدثته، واستأخرت له عشر، وبع
 سوة سنة ويقبلته، لا أدري أينهن أمه؟ فقال لها: إذا هن أتيتك فاعلميني،
 فعلمت، فقال لأمرة منهم: نسكن أم هذا الصبي؟ فعلمت وأنه من أحسب
 ولا أجملت يا عمر، أتعمد إلى امرأة ستر الله عليها فتريد أن تهتك سترها،
 قال. صدقت، ثم قال للمرأة: إذا أتيتك فلا تسألين عن شيء، واحسني
 إلى صبيهن. ثم انصرف^(١).

وأخرج أبو داود والنسائي عن دحير أبي الهيثم - كاتب عمة بن عامر رضي
 الله عنه - قال: قلت لعقبة بن عامر إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم
 شرطه، ليأحدوهم، قال لا تفعل، وعظهم، وهددهم. قال بي يهينهم فتم
 يتهوا، وأنا داع لهم الشرطه، ليأحدوهم. فقال عقبة: ويحك لا تفعل، و
 سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من ستر عورة فكأنما امتحيا مؤودة في
 نهر»^(٢).

وكذلك يشاء المؤمنين على أسرار أئمتك الأسر حرمه نصيب مثلا
 - لا يجوز له أن يقضي سر مريضه.

وقد كان لمحبس في العهود الإسلامية يأخذ على الأصغر عهد أبي هريرة
 من الإذن لهم بمدرسة النكاح، لأن من حمة وعفاف محسب مرقه

(١) المرجع السابق ٧٣٠/٢

(٢) رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد

أعمال الأضواء، ومنع من لم يؤذن له بممارسة الطب من ممارستها، وفرض
لجزء على من يخالف عن أوامر السلوك المفروض عليهم.

وقد نت كليات الطب في العصر الحاضر هذا القسم، وهو. أقسم بالله
وشهده أن أحترم مهنتي، وأعتبر أمانتي بمنزلة والدي، وأن أتبع في
علاج مريضة سي تؤمن أنها محبة وممددة، وسوف أقضي حالي في
ممارسة في في صهر وفداسة، وأن أحرم السب الذي أذنبه، ولا أقضي سر
ضلع عبي، ولا يوح شيء بحب عدم الروح به، ولا أذنب عبي، مع أنه أو
أسمعه عن مرضاي في نطاق عملي، وأن أعتبر هذه الأشياء من الأسرار
لمقدسة.

ويأتي من أبي أوصيه أن علما من صون صب أضواء المدهرة لموهي به
٤٥٣ هـ - ١٠٦٠ م يلخص الحاصل الذي يجب على الأضواء أن يحتو به
وهي كمن حقق، وهو العقل، والحرص على كتمان أسرار المرضى،
ولا اعتدال في مديده لأحد - وخاصة بالنسبة للمفرد - وطهارة يد ولبنة،
والعروف عن إسقاط الأجنة^(١)

وكذلك أوصى الطبيب مهذب أمين من قبل لعددادي في كتبه محتجرات
في صب - يوضح من يصمون الإذن لهم بممارسة صب عهد بحفظ
سر. وفي ذلك يقول: ... وأن يؤخذ عليهم العهود في حفظ الأسرار،
فبهم يصمون على ما لا يطلع عنه الآباء والأولاد من أحوالهم.

وكذلك يحرم إساءة الأسرار لكل من التزم بحفظ الأسرار، فمن هؤلاء:

أ - كل من اطلع على معلومات أو مضمون أوراق تتعلق بشئون الدولة

ب - الموظفون والمستخدمون والمكلفون بملعة عامة.

ج - المحامون والأطباء.

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأطباء في طبقات الأطباء ١ من ٣٥

(٢) ابن هبل المصاوي، المختار في الطب ٤/٦

د - الأرواح والزوجات.

هـ - كل من استؤمن أو اطلع على أسرار لم يؤذن له في إذاعتها.

فالسرا أمانة، فلا يجوز لمن أفضي إليه به أو اطلع عليه أن يكشف عنه
ويحب أن يحافظ عليه، ويرعى الأمانات، لقوله ﷺ «السرا أمانة»^(١) ومن
أساء، فقد خان الأمانة. ولقوله ﷺ: «لا تجسسوا، ولا تجسسوا، ولا
تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا.»^(٢)

اختلاف درجات الحرمة والعقوبة:

لا شك أن درجات الحرمة تختلف من وضع إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى
حسب الأضرار التي تنجم عن هذا الإفشاء، وحسب تأثير هذا الإفشاء على
الشخص، وعلى الأسرة، وعلى السمعة في المجتمع، فليس ندي يفتشي سر
صديقه في أمر عائلي مثل الذي يفتشي سر الدولة، ولا ندي يفتشي سر
مريضه كالذي يفتشي الأسرار العسكرية للأعداء.

واحق أن كتم الأسرار الإسيه هو في الأصل أكثر إيماي أخلاقي،
فالإيمان والأخلاق وحدهما - وليس القانون فقط - هي الجديرة بحمته
الأسرار والأعراض، ذلك لأن ضمانات القانون مهما اشددت فلا يعدم
إيمان وسيلة للإفلات أو احتلل منها، أما ضمانات الإيمان والأخلاق،
فهي الرقيب الدحي القوي الذي يسمع ويعصم من التزلزل ولا يحدر

وعفوه إفشاء الأسرار تختلف كذلك باختلاف الأحوال والأسرار والأضرار.

(١) وجد بمعناه أحداث صحيحة فيها إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة أخرجه أبو داود،
والترمذي، من حديث جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما يتعالمون
بالأمانة، ولا يحل لأحدكم أن يفتشي على صاحبه ما يكره» رواه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس
عنهما قالوا: «إنما حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة» أخرجه أبو داود.

(٢) معنى عليه من حديث أبي هريرة

- ١ - ترتب الدولة جراء تأديبياً: من توجيه النظر، أو الإنذار، أو الإيقاف عن العمل، إن كان يعمل لدى الدولة في مكان حساس.
- ٢ - حرء مدني يرفع دعوى طلب تعويض عن الأضرار التي لحقت بالمدني عليه الذي أصابه ضرر من فضح أسرارهِ وتلوين كرامته.
- ٣ - حرء عقابي تعزيري، يعوم به الحاكم، ردعاً للحابي، وعقابه على ما أقدم عليه من جرم.
- ٤ - عهدٌ حروي على ما يقرب الإنسان في حز أحبه المسلم من أصرار وعلى ما ارتكب من آثام في حق المسلمين والمجتمع الإنساني.

المطلب الثاني

حكم التجسس على المسلمين وعقوبته

قد الفقهاء الجاسوس الحربي الذي يتجسس على المسلمين مدح لدمه، يقتر على أي حال، عند جميع الفقهاء. أما الدمى والمشتا من قدر أبو يوسف وبعض المالكية والحنابلة: إنه يقتل. وللشافعية ومحمد بن الحسن من الحنفية أقوال أصحابها يقتل، لأنه لا يتفص عهد مدني والمشتا من بالدلالة على عورات المسلمين، لأنه لا يخل بمقصود العقد.

وأما الجاسوس المسلم فإنه يعزر، ولا يقتل عند أبي يوسف ومحمد من الحنفية، وبعض المالكية، والمشهور عند الشافعية، وعند الحنابلة.

ولتفصيل هذه الآراء الفقهية نقول:

جاسوس على المسلمين في الأشياء المحدورة إما أن يكون مسلماً أو مدني أو من أهل الحرب وقد أجاب أبو يوسف من الحنفية عن سؤال هرون الرشيد - فيما يتعلق بالحكم فيهم - فقال: وسألت با أمير المؤمنين، عن الجوسيس بوجودهم وهم من أهل الدمة أو أهل الحرب أو من المسلمين فإن كانوا من أهل

حرب، أو من أهل نعمة ممن يؤذون الحريه من اليهود و نصارى و محوس
فاضرب أعتاقهم.

وإن كان من أهل الإسلام معروفين فأوجعه عقوبه، واصل حسبه، حتى
يحدثوا توبه^(١).

وقال الإمام محمد بن الحسن - من الحنفية - في المير الكبير: وإذا وجد
مسموم رجلا يدعي لإسلام عينا للمشركين على مسموم يكسب بينهم
مورثهم فأمر بذلك طوعا، فإنه لا يقتل، وكسر الأدم يوجعه عقوبه ثم
قال: إن مثله لا يكون مسلما حقيقة، ولكن لا يقتل، لأنه لم يترك ما به
حكم بسلامه، فلا يخرج عن الإسلام في اظهر ما أنه يترك ما به دخل في
الإسلام، ولأنه إنما حمله على ما فعل: الطمع، لا حيث الاعتقاد، وهذا
أحسن روحين، وانه أمر، فإن الله تعالى ﴿يَسْمِعُونَ نَقْلًا
فَيَسْمِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٢).

واستدل عليه بحديث حاطب بن أبي بلتعنه فإنه كتب إلى قرش: أن رسول
الله ﷺ يغزوكم، فخذوا حذركم.

فأراد عمر رضي الله عنه قتله، فقال الرسول ﷺ لعمر: مهلا يا عمر، فلعن
له قد طبع على أهل بدر فقال «اعملوا ما شئتم، فقد عرفت لكم»^(٣) فلو
كان يهد كافر يسه حب القتل ما تركه الرسول ﷺ بدرن كان أو غير بدري
وكذلك لو لم يقتل بهذا أحدا ما تركه الرسول ﷺ وفيه برز قومه على
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(٤)

فقد سمع قرآن مؤمنا، وعليه دلل قصه أبي سادة حين ستره سو فريسه،

(١) الخراج لأبي يوسف ٢٠٥-٢٠٦

(٢) الزمر - ١٨،

(٣) حديث حاطب بن أبي بلتعنه أخرجه البخاري ١٨٣/٦ الفتح ط السلطنة، ومسلم ١٩٤١/٤ ط
الخطي

(٤) الصفحة - ١

وَأَمْرٌ أَصْعَمُهُ عَلَى حَلْفِهِ، يَخِيرُهُمْ أَنْهُمْ لَوْ بَرَأُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَتَلَهُمْ. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْثَلَكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْلُمُونَ﴾ (١).

وكذلك هو فعل قد دمي فيه يوحج عقوبة. ويستودع سجن، ولا يكون قد يقص منه العهد. لأنه هو فعله مسلم أنه يكنه بأفصاحه، يود فعله دمي لا يكون يقص منه. لا ترى أنه هو قطع انظر في فصل واحد أمان أنه يكنه بأفصاح العهد، وإن كان قطع نظريو محاربة لله ورسوله بأفصاح عهد أبي، وكذلك لو فعله مستم من فيه لا يصير بأفصاح الأمان، بمسألة ما لو قطع نظريو، لأنه يوحج عقوبة في جميع ذلك، لأنه ركب ما لا يحل به، وقصد بفعله لحق ضرر بمسلمين، وإن كان حين طلب الأمان فإن له المسلمون أماناً به تكون عبثاً بشركين على مسلمين، أو أمانك على أنك إن حررت أهل الحرب بعورة المسلمين فلا أمان لك، فقد علق أمانه - ها هنا - بشرط ألا يكون عبثاً، فإن ظهر أنه عين كان حربياً لا أمان له، فلا بأس بقتله.

وبن رأي الإمام أن يسله يتعط به غيره فلا بأس بذلك. وإن رأى أن يحمده في فلا بأس بذلك، وإن كان مكرراً لرجل امرأة فلا بأس بنفسها، لإحافها بصير مسلمين، ولا بأس بقتل حاسومة المحرمة، كما يد حاربت وماتت مع قومها، ولا نصب لأهلها عورة، ولا بقتل النسي، ويحتمل في مسلمين وهو بغير نصي إذا قاتل فأخذ أسيراً لم يحر قتله بعد ذلك، بخلاف امرأة إذا قاتلت فأخذت أسيرة فإنه يجوز قتلها (٢).

ولا يسعى أن يقتل أحد أو يؤخذ بدون حجة، لأنه أمر دعاء لصاهر فمسه يشت عليه ما بقي منه كان حراد العمل، فإن هدد بصرب أو قيد أو حس حتى فر منه حاسوم، ففرره ليس بشيء، لأنه مكره، وقرار المكره بطل سوء.

(١) الأمان - ٢٧

(٢) انظر في ذلك ابن عابدين ٢/٢٤٩، ٣/٢٧٧، ط بولاق، وانظر في ذلك السير الكبير ٥/٢٠٤٠، ٢٠٤٤، ط شركة الإعلانات

كان الإكراه بالحس أو بالقتل . ولا يظهر كونه عيا إلا بأن يقر به عن طوع ، أو شهد عليه شاهدان بذلك . وإن وجد الإمام مع مسلم أو دمي أو مستأمن كتب فيه خطه - وهو معروف - إلى ملك أهل الحرب يخبره بعورات المسلمين حبسه لإمام ، حتى يظهر صحة ذلك ، ويسأل أمره . وقد أصبح المحط في زمان يعرف ويسب إلى صاحبه ، وكذلك نعمة الإصبع ونحوها ، مما تثبت دلالة على صاحبه .

- رأي المالكية : رأي المالكية أن الجاسوس المستأمن يقتل رأيا واحدا ، ولكنهم اختلفوا في الجاسوس المسلم والدمي على أقوال منها

١ - يقتل . لإصراره بالمسلمين ، ومعيه بالفساد في الأرض - إن كان يكتب لأهل الحرب بأخبار المسلمين - ولا يستأب ، ولا دية لورثته ، كمنحارب . وقيل يفعل به ذلك إن كان ذلك عادة له وعلى هذا مالك وسحنون .

٢ - وقيل يجلد بكالا ، ويطال حسبه ، وينفى من الموضع الذي كان فيه

٣ - وقيل : يجتهد في ذلك الإمام^(١) .

وقد وصح لفرطبي هذه الآراء في تحس المسلم والدمي في تفسيره فقال احتجب الناس في أمر الجاسوس المسلم . فقال ابن القاسم وأشهب ورواية عن مالك يجتهد في ذلك الإمام وقال عبد الملك إذا كانت عادته قتل ، لأنه جاسوس ، وقد قال مالك يقتل الجاسوس - وهو الصحيح - ، لإصراره بالمسلمين ، ومعيه بالفساد في الأرض ، وقيل يعاقب . وإن تعذر على الإسلام فيقتل ، وكذلك الدمي .

وقد روى علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ أتى بعين للمشركين اسمه فرات بن حمار ، فأمر به أن يقتل ، فصاح يا معشر الأنصار ، أقتل وأد أشهد ألا

(١) انظر تبصرة الحكام ١٧٧/٢ ، ١٧٨ .

لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فأمر به النبي ﷺ فخلع سيده ثم قال إن منكم من أكمله إلى إيمانه، منهم: فوات بن حيان^(١).

رأي شافعية ورأي الشافعية مساهل جداً في معاملة الجواسيس حيث يرون أن الجاسوس المسلم يعزر ولا يجوز قتله، وإن كان ذو هيئة أي له ماص عظيم في خدمة الإسلام عني عه، لحدث حاطب بن أبي بلتعة. وكذلك الذمي - عندهم - لا ينقض عهده بالدلالة على عورات المسلمين، وبو شرط عليه في عهد الأمان ذلك في الأصح^(٢)

- وأما لحابلة فلهم في الجاسوس المسلم رأيان الفس والرأي الآخر لتعريب. وعندهم ينقض عهد الدمة بأشياء منها التجسس على عورات المسلمين، أو إيواء الجواسيس. وكذلك المستامن ينقض أمانه بالتجسس على مسلمين^(٣).

نظرة على تلك العقوبات:

الذي يظهر لنا من استمراء تلك العقوبات التي فرضها الفقهاء أنهم مجمعون على قتل الجاسوس غير المسلم المحارب الذي لم يدخل أمان أما من يدخل أمان فوأي الشافعية - في الأصح عندهم، ومحمد بن الحسن، وبعض الفقهاء أنه لا يقتل، لأن ذلك لا ينقض الأمان

وهذا في حقيقة رأي يدعو إلى الماشقة إذ كيف ينقض الأمان - وبأي شيء - إذ أنه ينقض الأمان في أغلب الأحوال بل في كلها تقريباً سواء^٩ وأما من يدخل بعير أمان فهذا أمر معروف، لأنه محارب، فهو مهدد بالدم بعير تجسس.

(١) تفسير القرطبي ٥٣/١٨. وحديث علي بن أبي طالب في فوات بن حيان أخرجه أبو داود ١١٦/٣، ط عزت عيد دعاس، والحاكم ١١٥/٢، ط دائرة المعارف العشانية، وصححه، ووافقه الذهبي

(٢) عمدة القاري ٢٥٦/١٤، ط المصيبة، وشرح المهاج بعناية الجبرمي وفتاوي ٢٢٦/٤، بشرقي على التحرير ٤١٢/٢

(٣) شرح منهل الإرادات ١٣٨/٢، ١٣٩

فكيف يقول بعض الفقهاء بعدم قتله؟ مع أن فعل رسول الله ﷺ وصحاحه
 حاتف هذا الرأي، ويقول فعل الجاسوس الذي أمه المسلمون وحده

السنة وقتل الجاسوس

أخرج الإمام مسلم، عن سلمة بن الأكوع، قال: عروا مع رسول الله ﷺ -
 - هوارب، فينا نحن نصحي مع رسول الله ﷺ - «يعني نتعدى» دجاء رحل
 على جمل أحمر فأناخته، ثم انتزع طلقاً من حقه «أي عقلاً من حقيقته» فقيده به
 للجمل، ثم تقدم ينعدى مع القوم، وحمل بطر، وبها صمعة ورقة في ظهره،
 وبعض مشاة^(١)، دجج حرج يشد فأنى جملة، فأطلق قيده ثم ناداه وقعد عليه
 فأثروه، فشد به الجمل، فأسعه رحل على ناه ورقاء، قد سمعه وخرجت
 أشد، فكنت عند ورك الناقة، ثم تقدمت، حتى كنت عند ورك الجمل، ثم
 تقدمت، حتى أخذت بحظام الجمل، فأبجه، فلما وضع ركبته في الأرض
 اخترطت سبي فضربت رأس الرجل، فندد - أي سقط -، ثم جئت بالجمل
 أقوده، عليه رحله وسلاحه، فاستقلني رسول الله ﷺ - والناس معه
 فقال من قتل أرح؟ قالوا: ابن الأكوع قال: له سلمة «جمع»^(٢) وفي رواية
 بسائتي: أن رسول الله ﷺ - أمرهم بطلبه وقله، وفي رواية البخاري
 لصريح بذلك عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه، قال: أتى النبي
 ﷺ - عيين من المشركين - وهو في سفر - فجلس عند أصحابه يتحدث ثم
 سئل فقال: سي - «أصلوه، وأقبلوه» فقتله، فعنه الرسول ﷺ -
 - سلمة. وزاد أبو نعيم في قول النبي ﷺ -: «إياه عيين، أدركوه».
 وأخرجه الإسماعيلي بسقط «قام رحل فأحر» النبي ﷺ - أنه عيين
 للمشركين. فقال: (من قتله فله سلمة).

(١) صمعة في معاد ومعاد، وفي صمعة المراسل، فأخذ الرجل الجاسوس ببعض ذلك بيعة فومه
 بضمتين وأحوالهم، ولما فرغ من أمره انطلق هاربا إلى قومه

(٢) رواه البخاري ١١٦/٦، ١١٧ في الجهاد، ومسلم، رقم ١٧٥٤ في الجهاد، وأبو داود رقم ٢٦٥٤
 في الجهاد، في الجاسوس المسامى، وجامع الأصول ٣٩٨/٨

فإن من حذر إذا اطلع بعض المسلمين على حاسوس لا يكتم أمره، من عيبه أو يرفع أمره للإمام، ليرى فيه رأيه وقال لإدم السوي - في شرحه على صحيح مسلم - بقتل الجاسوس الكافر الحربي، وهو كذلك بجمع المسلمين، وأما الجاسوس المعاهد والدني فقال مالك والأورعي بصير ناقص العهد، ويحور قتله، وقال جماهير العلماء لا ينقص عهده بذلك فإن أصحابنا: إلا أن يكون قد شرط انتقاض العهد بذلك.

وأما الجاسوس المسلم فقال الشافعي والأورعي وأبو حنيفة وبعض المالكية وجماهير العلماء رحمهم الله تعالى، يعزوه للإمام بما يرى، من صرب وحس ويحورهما ولا يحور قتله وقال مالك رحمه الله تعالى يحتهد فيه الإمام، ولم يصر الاحتهد. وقال انقاضي عياض رحمه الله تعالى قال كبار أصحاب يقتل قال: واختلفوا في تركه بالتوبة. قال ابن الماجشون: إن عرف بذلك قتل، ولا عذر. انتهى^(١).

ولم يدر حديث رسول الله - ﷺ - ولواقعة التي صاحبت هذا الحديث بعد أن هذا الجاسوس قد دخل آمنا، وحلس مع الصحابة يتعدى ويأكل، ثم حادهم وتجنس عليهم، ويريد أن يلحق بالمشركين، ليحترهم أمر الجيش، من فقد حار العهد والأمانة والمسلمين فأمر الرسول - ﷺ - بقتله وكفا من قتله بإعطائه سلبه.

ولظهر من اختلاف المسلمين في أمر الجاسوس المسلم أنهم قسموا ذلك على حادثة خاطب من أبي بلتعة - المذكورة في سورة الممتحنة - ولحادثة - في برفع - لا تصح ديبلا إلا لمن كان مثل خاطب من أبي بلتعة في جهده، وحس بينه وبينه وقد تصور خاطب شيئا، فجهده فيه فأخطأ فقد تصور أن منه ناصر رسونه لا محالة، وأنه لا ينفع المشركين شيء، أو يمنعهم من رسول الله - ﷺ - مانع.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/٦٧، ط المطبعة المصرية، وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ١/١٤٤، ١٦٨، ط المرحه

وهذا بالطبع اتهام وحاطي، رده القرآن، وأجابه عليه، وفهمه رسول الله ﷺ . قال الحصص لقد ظن حاطب أن ما فعله جائز، ليدفع به عن وئده وماله، كما يدفع عن نفسه بحاله عند التقية^(١).

أما جواسيس اليوم من المسلمين فأمرهم مختلف فهم قد انقصوا عن أمتهم، وواصبوا حياتها، وليس لهم سابقة إلا في الصلال ولعمالة، فكيف يقاسون بحاطب أو بأبي أمامة رضي الله عنهما! وقد وصح هذا الإمام الألويسي - رضي الله عنه - حيث قال في قصة حاطب فيها دليل على قتل جاسوس، بتعيينه - ﷺ المنع من قتل حاطب شهوده بدر وسائمه، فمن ليس على شاكلته يقتل^(٢).

ثم بحسبهم وإفشادهم للأسرار ليس شيء عارصاً، أو حصاً في عفة، أو شهوة، كما فعل أبو أمامة، ثم تدم وتاب وأقر بدنيته. وإنما هو اطمئنان بنفس، وإصرار فعل، وعلم حياته، وطمع نفس، وفساد طمع وطوية، ومفصلة شعورية، اقتصب بيع أسرار المسلمين ومخاربتهم، ولا يصمم بي صف عدوهم، والانحياز إليه، وتسي مخططاته، لصرب المسلمين وإهلاكهم، وإبائهم، وفصح أعراضهم، واحتلال بلادهم فهل أمثل هؤلاء يقاسون بحاطب من أبي بلتعة، وأبي أمامة، الذين عى عنهم رسول الله ﷺ آثار حاطب، وبشاره أبي أمامة مطلق إشارة أقر بها وما رآه أحد. وحسن نفسه أياماً، وربط نفسه في سارية المسجد عقاباً له، حتى يؤدب نفسه، وتنزل توبته.

الحق، فالأمر مختلف تماماً، والجهة معكفة، والدليل في وده، ولمسأله في واد آخر.

(١) أحكام القرآن للحصص ٤٣٥/٣، ط دار الكتاب العربي
(٢) النظر روح المعاني للألويسي في سورة الممتحنة - ج ١٠/١٦٦

المطلب الثالث

تجسس الحاكم على الرعية

سواء أن يكتم في تحريم التجسس على المسلمين وهتك أسرهم، لعموله
تعدى «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم
ولا تجسسوا».

ويؤكد ذلك في حق الحاكم، لأنه مثل الأمة وقدوتها وقد وردت بذلك
نصوص خاصة به، دالة على وجوب ذلك، وتشديده عليه.

منها: ما رواه معاوية: أن رسول الله - ﷺ - قال له: «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم» فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله - ﷺ - فغضب الله بها.

وعن أبي أمامة مرفوعا إلى النبي - ﷺ - أن الأمير إذا اتقى الرعية في الناس
أفسدهم^(١) وقد التزم الأمراء المسلمون بذلك في الصدر الأول، وعرف
الناس ذلك، فكانوا ينهونهم إذا أخطأوا أو رلوا. يذكر الإمام عبد الرزاق في
مصنفه أن أبا محجر النخعي كان يشرب الخمر في بيته، هو وأصحاب له،
فانطلق عمر بن الخطاب حتى دخل عليهم. فقال أبو محجر يا أمير
المؤمنين، إن هذا لا يحل لك. قد نهى الله عن التجسس، فقال عمر ما
يقول هذا؟ فقال له ريد من ثابت وعبد الرحمن بن الأرقم صدق يا أمير
المؤمنين، هذا من التجسس. قال: فخرج عمر وتركه^(٢).

فعلم من هذا أنه ليس للحاكم أن يتجسس على الناس، ولا أن يتبع

(١) أخرجه أبو داود: ١٩٩/٥، ط عزت عيد دعاس، وإسناده صحيح. حوزة المعبرود: ٤٢٢/٤، نشر دار
الكتاب العربي.

(٢) أخرجه أبو داود: ٢٠٠/٥، ط عزت عيد دعاس، وأخرجه أحمد: ٤/٦، وصححه النووي. كتاب في
بعض القليل ٢٢٢/٢، ط المكتبة التجارية.

(٣) مصنف جيلزاق: ٢٢٢/١٠، وتفسير القرطبي: ٢٢٢/١٦.

عور نهم، حتى لا يسلطهم، ويشع فيهم سوء. وقد أمر بإصلاحهم، ونستر عيبهم، ولرحمة بهم، قال الحلي في هك ستر أصحاب القروف بحديث
 'أمر لفاحشة على قلب من شاع فيه' (١)، وإنما للحاكم أن يأخذ الناس بما ظهر
 من أعمالهم، إلا في أمور ثلاث ستعرض لها.

قال - ﷺ -: لا تحسوا، ولا تجسوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا،
 وكونوا عباد الله إخواناً (٢).

هل تباح الأسرار للحاكم؟

يس نحاكم أن يعرف أسرار الناس، ولا أن يطلعها من أحد، كما أنه ليس
 بمسئد أن يسعى في كشف عورات أخيه، ولا يحل له ذلك، فيتعمد الصبر
 بأخيه المسمم بغير حق، لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 بَعَثَ مَا كَحَتَسُوا فَقَدْ آتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِنَّمَا كُيِّتَ﴾ (٣)، ولقول لرسول
 - ﷺ -: «من رأى عورة فسترها فكأنما استحيا مؤودة» (٤).

فإن طلب منه الحاكم كشف ما لا يحل له كتبه، ولم يبح به، فإن قصره على
 ذلك قد بعض العلماء أنه أن يكر إن خاف على صاحب السر لصبر في نفسه
 أو أهله أو ماله أو سمعته. فإن أخبره فله أن يكذب، والائتم على من أصغره إلى
 ذلك بغير حق (٥).

فإن س حجب لهيئتي الكذب قد يحب، كما لو رأى معصوما احتفى من
 ضلته يريد به شراً، أو يريد قتله، أو إيذاؤه، فالكذب هنا واجب، أو سأل النظام
 عن وديعة يريد أخذها، فيجب الإنكار والكذب، بل لو استحققه لرمه الحلف

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحلي ٣٦٤/٣

(٢) حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) الأحزاب، ٥٨

(٤) قال المرفقي - روله أبو داود والنسائي، والحاكم من حديث عتبة بن حامر وقال: صحيح الإمام
 لإجماع، ٢١٦/٥


(٥) العرائي شرح الإحياء ٢١٦/٥

و هو سأل سبطان عن دحشه و فعت سرا منه كرمي أو شرب حمر منه أن يكذب،
ويقول: ما فعلت، وله أيضا أن ينكر سر أخيه^(١).

إذا فليس للمحكم أن يكشف أسرار الناس، ولا أن يتدخل في شئونهم
محصنة كما أنه ليس للإنسان الحق في أن يوصل أو يوح له بشيء لا يحل
الروح به كما حذر العلماء من إفشاء الأسرار إلى السلاطين الصدمه الذين
يظنهم أساس غير خريفة، ويعتدون على أجسادهم وأموالهم وحرمتهم
وأنحور. انكذب عليهم، وأوحوه، حفاظا على المسلمين، ولا كد متسلسلي
يؤذونهم بغير حق، مشاركا لهذا الظالم في الإثم والبيغى.

ما يباح للمحاكم التجسس عليه:

يباح للمحكم التجسس في أشياء حددها الشرع له، كما يباح له جمع الأحبار
عنها من رعيته.

قار  المحالين بالأمانة، إلا ثلاثة مجالس مجلس بسفك فيه دم
حرام، ومجلس يستحل فيه فرج حرام، ومجلس يستحل فيه مال من غير
حله^(٢)، فللمحاكم أن يتجسس على من يقتربون هذه الأشياء، إذا كانت عنده
قرائن قوية بذلك. فإن لم يكن عنده قرائن فلا يتجسس.

مثل أن تتأكد الأحبار لديه ممن يثق فيه، ويعرف صدقه أن رجلا حلا برجل
ليفنله، أو امرأة تيرمي بها، أو نعال رجل ليأخذها، فيحورله أن يكشف ثبث
الحرام قبل وقوعها، حذرا من فوات ما لا يسدرك من انتهاك المحرم،
ورتكب المحظورات وكذلك لو عرف هذا قوم من المتطوعين حار بهم
الإقدام على الكشف والإبكار. أما ما كان دون ذلك في الرية فلا يجوز
التجسس عليه، ولا كشف الأستار عنه.

(١) الزواجر لأبي جعفر الهيثمي: ١٨٦/٢ ط القاهرة مصطفى الحلبي ١٣٧٠هـ

(٢) أخرجه أبو داود من حديث جابر، انظر الإحياء ١٧٩/٢، فان الريدي سكوت أبي داود عنه بد.

على أنه عنده حسن. شرح الإحياء. ٩٦٠/٥

تجسس المحتسب:

المحتسب هو من يأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، وينهى عن المنكر إذا ظهر فعله **قُلْ بِعَالِي** ﴿وَلَتَكُنْ مَكْمُومَةً﴾ **يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** وهكذا إن صح من كل مسلم، بكن المحتسب بتعين علمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه مكلف بذلك، وبأحد عيه أجراً، ومنقطع له، ويعمل عملاً من أعمال الدولة الإسلامية.

فما لم يظهر من المحظورات فليس للمحتسب أن يتجسس فيه على الناس، ولا أن يسهث أسرارهم، لأنهم في سر الله، إلا إذا أتى أحد صمته، وكشف عن نفسه.

قار - **يَسْتَرِ** - اجتسوا هذه المادورات التي نهى الله عنها، فمن ثم فليست بستر الله،^(١) فإن علم على طنه استتار قوم بجريمة ودلت على ذلك لأن والأخبار الصادقة والتحريات القاطعة فذلك على ضربين:

أحدهما أن يكون ذلك في سمك دم، وقتل، أو ربي، أو سرقة أي في انتهاك حرمة نفوت استدراكها مثل أن يحبره من شق به عن طريق المعرفة بالتحري أو بغيره من الدلالات الصادقة: أن هناك رجلاً خلا برجل ليقتله، أو بمرأة ليرني بها، فيجوز في مثل هذه الحال أن يتجسس، ويقدم على الكشف والنحت، حذراً من فوات ما لا يستدرك من ارتكاب الجرم، أو فعل المحظورات، وإن كان هناك طريق آخر يمكن أن يمس ذلك بغير تجسس وجب عليه اللجوء إليه، حتى لا يقع في المحظور.

ثانيهما، ما خرج عن هذا الحد، وقصر عن حد هذه الرتبة، فلا يجوز التجسس عليه، ولا كشف الأستار عنه كما تقدم^(٢).

وما يجري الآن في الدول، وما يطبق في التجسس على المفسدين ومن يظن فيهم الشر وهتك الأعراض والاعتصاب للأموال، وما يحصل في الكشف عن

(١) الحديث، أخرجه الحاكم ٢٤٤/١، ط دار المعارف العشانية، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) الأحكام السلطانية للمبارودي في أحكام الحسبة ص ٢٤٠ وما بعدها.

بطن فيهم الاتجار في المحظورات كالخمر والحشيش بهرائ ظاهره، ومن تعقب
المحرمين والعصانات التي تروع الناس، فهذا أمر ليس فيه حروح عن أحكام
الإسلام في الجملة بل هو الواجب، لقطع دابر الفساد وحفاظا على حموق
الناس، واستتباب الأمن.

أم ما حصل من تجاوزات وما يتبع في تعقب للأترياء لاختلاف الرأي، أو
تشيت باطل، فهذا شيء محالف لشرع الله، ومهلك للأمة، ومصيب لعدقتها
وقواها الحيوية، يحمل كبره فاعلوه.

عقاب المتجسس على البيوت:

للتجسس على البيوت جريمة في نظر الإسلام، حرمها على الناس، وعلى
السلطات روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - أنه قال من اطلع
في بيت قوم من غير إذنهم حل لهم أن يفتأوا عينه^(١).

عقاب اليم، وإعطاء الحق للمتجسس عليهم أن يتفموا من المتجسس شر
تقدم وقد اختلف العلماء في تأويله فقال بعضهم هو على طاهره، لمن
طلع عليه أن يفتأ عين المطلع حال الاطلاع، ولا صمام وهذا مذهب
الشافعية والحنابلة.

كأنهم بذلك أعطوا المتجسس عليه حق الدفاع عن نفسه، في مقابل الجراءة
على بيته، وهتك أسرارته.

وقال المالكية والحنفية ليس هذا على طاهره، وإنما المراد تشديد العقوبة
عليه، وأن يعمل به عملا، ويعاقب عقوبة كيرة تردعه، فلا يطر بعد ذلك في
بيت غيره.

وقد كن النبي - ﷺ - يتكلم بالكلام في الظاهر وهو يريد شي آخر. كما
جاء في الخبر أن عباس بن مرداس لما مدحه قال للال - قم فاقطع لسانه^(٢)،
وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئا، ولم يرد به القطع الحقيقي

(١) حديث (من اطلع في بيت قوم من غير إذنهم) أخرجه مسلم: ١٦٩٩/٣، ط الحلبي.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام: ٤٩٣/٢، ط الحلبي.

وفي بصره الحكام لو نظر من كوة أو من ثقب الباب فعلاً صاحب الدار عيه
فصد رحره بذلك ، فأصاب عينه ولم يقصد ثقبها ، ففي ضمانه خلاف ، وأما
عد الحية فإن لم يمكن دفع المظلع إلا بقز عيه فثأف لا صاب ، وإن
مكنه بقره - مثلاً - فلا ثأف عيه^(١) .

ومحصلة ذلك : أن عقوبة المتحس عاقوبة تعزيرية ، يعاقب بها الحاي ،
حيث تردعه عن هذا الفعل المحرم المشي ، تدور تعييضاً وتحميها
حب عظم بقر وصعره ، وليس فيها حد معين يصب على الجمع ، بل
المرجع في تقديرها إلى الهيئة التشريعية «المحتدين» ، ويسمى في عرف
الفقهاء إلى تقدير الإمام^(٢) .

المطلب الرابع

التجسس وكشف الأسرار الواجب

أحار الدين لإسلامي أشياء في حالة الحرب ، وحرمة في غير ذلك ، فقد
أحار استطلاع الأحار عن العدو ، والتمويه ، وحاداع لأعداء والحصوم ،
والكدب عليهم ، ما دام ذلك في صالح المسلمين وأحار الهدم ، والقطع في
حالة الحرب ، وحرمة في غيرها^(٣) .

واستطلاع لأحار لصالح المسلمين فرض على الدولة ، من أجل المحافظة
على كينها ، وتحقيق الانتصار على أعدائها ، واستطلاع أحار جيوش لأعداء
وستعدادتهم الحرس ، واستطلاع أحار احتراعاتهم واكتشافاتهم ، ومعرفة م

(١) تفسير القرطبي ٢١٢/١٢ ، ٢١٣ ط دار الك ، وبصرة الحكام ٣٠٤/٢ ، والمضي ٣٢٥/٨ ، ٩ /
١٨٩ وما بعدها ، وابن عابدين ٣٥٣/٥

(٢) ابن عابدين ٢٥١/٣ ، والربلي ٢٠٧/٣ ، ٢٠٨ ، وبصرة الحكام بهامش فتح المكي المالك ٨٠/٢ -
٣٠٨ ، ونهضة المحتاج ١٧٥/٩ - ١٨١ ، ومضي المحتاج ١٩١/٤ ، ١٩٢ ، وحاشية قليوبي وعميرة ٤ /
٥٠٥ ، ٥٠٩ ، والمضي ٥٢/٥ ، ٣٢٥/٨ ، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ٢٩٥ ، ٢٩٦

(٣) صحر ، زاد المماد - ابن عبد الوهاب ص ٢٢٩ ، ط بيروت ، المكتبة الإسلامية

درؤوم ويحفظون و نقصير في هذا الأمر كان - دائما - يوقع مسمم في مشاكل حرية وأمية.

ففي يوم حين هوجي المسلمون بكمن أعدته هوارن، أربك صفوفهم، وبو أن عيون المسلمين وطلاتهم كانوا أكثر دقة في الرصد والمتابعة لم وقوعه، في مثل هذا لكمين لذي كاد أن يوقع الهزيمة بالمسلمين، لولا نداء الرسول - ﷺ - وبعض من أصحابه رضي الله عنهم الذي حول الهزيمة إلى نصر مؤزر. وبكسر ذلك كدت استحداث هوارن بشطة وقد رأب حسوسهم نسي دحر وسط حبش المسلمين، ويتدى معهم، وعرف أحارهم، ولولا نطف له بالمسلمين، ثم بحوق سلعة من لأكوع به، وأمر الرسول بصرت عنقه كان فيه خطر عظم على المسلمين وقد عدت الإشارة إلى ذلك، ولم يمنع ذلك من إرسالهم ثانياً وثالثاً، والأعداء لا يملون.

وقد كانت اليهود في المدينة، والأعراب من صعاف نفوس، والمافقون، يشكون عصر تحس قويا على المسلمين في تحركاتهم في المدينة، وفي الساحة الجاهلية.

وكذلك كانت عيون الروم واستخباراتهم بشطة في جمع المعلومات عن مسممين وأحولهم فقد عرف ملك عاد الموالي لروم أن لرسول عليه الصلاة والسلام - قاضب على كعب بن مالك، لتخلفه عن غزوة تبوك، فأرسل له الملك لعدي رسالة يعريه بها بأن ينحق كعب بالعباسة^١

وهذا يدس على أن العيون كانت ترفد المسلمين، وترقب حتى مشاكلهم لاجتماعية، وتحاول استغلالها لصالحهم لكن حوادث لا حتراف من قبل الأعداء كانت دائما تنكسر على إيمان المسلمين بعقيدتهم، وبماسكهم بأحوتهم ووحدهم، وبفطنتهم، واستعدادهم.

حطة الرسول - ﷺ - للحذر من العيون:

(١) المرجع السابق ص ٣٥٤، ٣٥٥، ونظر في ذلك سيرة ابن كثير ٤/ ٤٢ في الفصة، ط المعبي

استعمل الرسول - ﷺ - حطة حكيمة للدفاع ضد الجواسيس والعيون وهذه الحطة تتمثل في شيئين: الكتمان والحراسة، لأن المدينة والمسلمين كانوا مستهدفين - كما يبا - من قبل أعداء كثير، من قبل اليهود الحاقدين، والعرب الذين لا يرأون على كرمهم، وطائور الماسفين الذين كانوا يدعون الإسلام، ويقومون بين أظهر المسلمين. وإلى جانب هؤلاء جميعا بعض تجار الأنباط الذين كانوا ينقلون أخبار المسلمين إلى الدولة البيزنطية، لكل ذلك أمر المسلمون بالحذر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حُذُوا حُذُرَكُمْ﴾^(١) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾^(٢) ﴿وَحُذُوا حُذُرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أََعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٣).

الكتمان: وكان المسلمون والرسول - ﷺ - يستمعون على قضاء حوثهم بالكتمان.

وأما عن تطبيق مبدأ الكتمان فقد انتكر الرسول - ﷺ - في الأمور المهمة وفي تحركات الجيش فكرة «الأوامر المختومة» المغلفة، حيث أعطى الصحابي الجليل عبدالله بن حنشل رسالة مغلفة، وأوصاه ألا يفتح هذه الرسالة إلا بعد يومين من مسيره من اتجاه عينه الرسول - ﷺ - ، وبعد انقضاء المدة فتح عبدالله الرسالة فقرأ فيها: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تصل بين مكة والطائف، فرصد بها فريشا، وتعلم لنا من أخبارهم^(٤)، فقال عبدالله: سمعنا وطاعة.

ولعله من الواضح أن الرسول - ﷺ - قد لجأ إلى هذه الوسيلة لإحفاء الأمر عن العيون، وعن جواسيس العدو، حتى لا تعرف وجهته وهدف تحرك المجموعة.

(١) النساء - ٧١

(٢) المائدة - ٩٢

(٣) النساء - ١٠٢

(٤) ابن كثير: ٢٩٤/٣، البخاري: ١٧٠-١٧١، زاد المعاد لي هدي خير العباد ٩٤/٢، سيرة ابن هشام: ٦٠٢/١-٦٠٦

كما يرى أن الرسول ﷺ في أثناء المسير إلى بدر لمواجهة المشركين أمر
عنه إسلام أن تقطع الأحراس من أعناق الإبل، لإحفاء حركة الخيش عن عيون
العدو، فلا يسمع أصوات أو حلبة الإبل^(١)، وفي معركة الحندق أحصى الرسول
ﷺ حرس إسلام بنعيم بن مسعود وساعد هذا على إنجاح مهمته، حيث أوقع
بين الأحزاب من جهة، وبين اليهود من جهة أخرى، ولو عرفت عيون اليهود
بغير نعيم لفشلت مهمته، وهي أساسية وخطيرة.

ومن ذلك أن الرسول ﷺ كان إذا أراد غزوة وري بأخرى، أو أراد
صلال عدو فعل عكس ما يريد ففي الهجره احتأ في عر ثور، على طريق
غير طريق المدينة، حتى هذا الطلب.

وعندما أراد أن يغزو بني لحيان - بسبب غدرهم بدعاة المسلمين - أمر
باعداد حملة للانتقام منهم، وأظهر أنه يريد الشام، وتحرك بقواته شمالاً،
ولما اطمأن إلى انتشار خبر حركته إلى الشمال كر راجعاً مسرعاً نحو
الهدف^(٢)، وبسر الطريقة اتبعها - عليه السلام - عندما أراد التوجه إلى
خيبر. إذ لم يتوجه إليها مباشرة، بل توجه إلى المرحيع من أرض عطف،
وبعدها كر عليه السلام راجعاً بجيشه إلى خيبر ففاجأها^(٣).

وكذلك كان عمل الرسول في فتح مكة، من كنم الأمر، حتى إنه - عليه
السلام - أحصى بوابه عن أهله، وعن مجلس حربه، وعن أبي بكر أقرب
الأقربين إليه^(٤).

وهكذا كان الكتمان والتنمية عنصراً قوياً في إنجاح المقاصد استعمله -
عليه السلام - بحكمة وحذق.

(١) الفس الحربي في صدر الإسلام ص ٢١٦: هذا الوقت عوذ

(٢) زاد المعاد. ١٣٢/٢، ط مطبعة القاهرة.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢٣٠/٢، ط الحلبي.

(٤) سيرة ابن هشام. ٣٩٧/٢

بحراسة اهتتم الرسول ﷺ بالحراسة واتحاد الحراس، حتى يجمع عيون
عدو من حترق صفوف المسلمين وإلحاق لأذى بهم، أو كشف عورتهم،
وحواف مائة لأعداء بالمدينة معقل الإسلام والمسلمين فمثلا عدم عدم
رسول ﷺ سنة فريش في لوجه الى المدينة أعنت حنة ساهب،
ونشرت حرامات حول المدينة ومدخلها، يحرسونها، خوف سرور عيون
عدو دحها، وسعهم برسور والمسلمون الداخلين بيها وأخرجين منها
ممن لهم صلات بالمتافين أو يهود -، وحتى لا يؤخذ المسلمون على
غرة، فكلف سلعة بن أسلم في ثلاثمائة رجل لحراسة المدينة^(١)، ثم
اختيرت مجموعة من فتية الأنصار لحراسة الرسول - ﷺ - وكان على
رأسهم سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، سيبون بالسلاح في مسجد برسور
ﷺ بحرسونه، حتى تريت الاله الكريمة بحراسة الله نه ﷻ والله يعصمك
من الناس^(٢) وفي غزوة ذات الرقاع سنة ٤ هـ كلف الرسول ﷺ عمر
بن ياسر وعباد بن بشر بالحراسة، وكذلك كان في غزواته عليه السلام.

وفي نطاق الاستعداد لغزو مكة تجلت حيرة الرسول - ﷺ - العسكرية في
هذا محار فقد أحكم الرسول ﷺ حصار المدينة حتى لا يسرب منها
أحد إلى قرش باستعداد الرسول ﷺ دعم أن الرسول عليه السلام - قد
أحمى أمر يدهاب إلى مكة عن أقرب الأقرب إليه، فأمر بحراسة المدينة،
واتكر ما تسميه اليوم «بتأشيرة الدخول» فأمر - عليه السلام - عمرو بن
لحطاب بالإشراف على حراسة المدينة، وزوده بالتعليمات التي تحكم لسرية
بالامنة ألا ندع أحدا يمر بكم تكرويه إلا رددتموه، إلا من سلك بي
مكة، فإنه يحتفظ به، وسأل عنه^(٣)، وزيادة في الحرص واتعميه أرسل
مرية إلى بطن أضم.

(١) طبقات ابن سعد، ٦٧/٢، ط دار بيروت للطباعة والنشر

(٢) الاستيعاب ٩٠٢/١، زاد المعاد ٤٧/١

(٣) المدرسة العسكرية: محمد فرج، ص ٣٠٥، ط دار الفكر العربي

ولم يكن الرسول - عليه السلام - بهذه الإجراءات، فيث عيونه وأرصاده
 دورياته، لتحول دون سرقة المعلومات عن وجهه، فاشيروا في ذلك المدة
 وجوبها وكان من سيحبه ذلك أن يصطف امرأه فد سرت حاطب بن أبي تمته
 معها كتاباً بنو قريش بحسن به، فمرسل الرسول ﷺ مجموعته على رأسها
 عبي بن أبي طالب، فكتب بكتاب من امرأة، وبلغ من حرص رسول الله
 كتمان الأمر أن دعا ثمة مسجانه بعد أن بدأ جهده في التكميل وتحريسه
 فقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش^(١).

وفي هذا يتبين لنا مقدار الاستعداد الذي أعده الرسول - ﷺ - بكماله
 لأخبار وحراسة قاعدته من العيون، ومن سرقة الأخبار إلى أعدائه عن
 استعدادهم، وعن وجهته، وعن أحوال المسلمين، مما يرهه الأعداء.

عيون الرسول في التجسس على الكفار:

كان الرسول ﷺ يرسل المطلاع أمام الجيوش، ليحسبوا خبر العدو، وكان
 ﷺ - يث عيونه بين القبائل والمدن، حتى تأتبه بأخبارهم، حتى لا يؤخذ
 المسلمون على غرة.

وهذا من الاستعداد الذي أمر الله به المسلمين فقال تعالى ﴿وأعدوا لهم ما
 استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ فإذا كان رباط لحيل مأموراً بإعدده، أفلا
 يكون إعداد جهز مستطلاع قادر على نصير المسلمين بأمر عدوهم من أوجب
 الواجبات؟ ويكون سكبش الطرق أمام جيوش المسلمين ومعرفة موقع
 الأعداء وأحوالهم وعدتهم وعددهم من ألزم الأمور.

وقد فعل هذا رسول الله ﷺ ، ليكون فدوه لأمنه، فأرسل العيون
 والمطلاع أمام الجيوش. وفي وسط الأعداء، حتى يهتفهم، ولا يؤخذ
 المسلمون على غره. وذلك حسب منهج مرسوم ومحدد، فالاستطلاع يكون
 دئماً موحها ومستمر، ليلا ونهاراً، وفي كل الظروف، وعلى أية أرض، ولا

(١) سيرة ابن هشام، ٢٩٧/٢، عيون الأثر لابن سيد الناس ١٦٦/٢، ط بيروت، ودار المعاد. ١٨٠/٢

بد أن يكون فعلا وهدوا وسريا، ولا بد أن تكون المعلومات المقولة مضافة للواقع، وموثقة، ومؤيدة من آخرين، كما حدث في معركة بدر فقد أرسلت بعض لطلانغ أمام الجيش للتعرف على أخبار العدو، منها طليعة مكونة من طلحة بن عبدالله التميمي، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل^(١).

ثم أرسلت مجموعة أخرى من العيون لمس العرض وهم سسس بن عمرو النحسي، وعدي بن أبي الرعاء^(٢)، ويمكن هؤلاء من معرفة وصول القافلة ثم حرج الرسول ﷺ - نفسه، ليتقصى الأخبار، ويجمع المعلومات^(٣). ثم حرج علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهم -، ليستطلعوا الأخبار، وجمعت كل هذه الوفود بمعلوماتها ومن ألقوا عليه القبض من طلائع الأعداء لاستحوابهم، تجمع كل هؤلاء بقيادة الرسول - ﷺ، حتى يحكموا الأخبار التي وصلوا إليها، ويعلموا الحقيقة، ويرسموا الخطة على أساسها.

وقبل معركة أحد تذكر المصادر بأن العباس عم الرسول عليه السلام أرسل للمسلمين رسالة تحذرهم عن موعد خروج قريش، وعدد قواتها، دلالة على أن المسلمين كانت لهم قاعدة استخبارات في مكة، ترصد تحركات قريش. ورغم هذا أرسل الرسول عليه السلام - أسا ومؤسا اني فضالة^(٤) للاستطلاع ولتجسس على قريش، فعادا ومعهما المعلومات. ثم أرسل الحباب بن لمدر لمس العرض، وعاد بمعلومات تؤكد حشد قريش واستعدادها^(٥)، ثم أُرْدِف هؤلاء بوفد ثالث برئاسة سلمة بن سلامة، فعاد وأحضر المسلمين بأب قريشا أصبحت قاب قوسين أو أدنى من حدود المدينة.

وكثرة الوفود والحواسيس تهدف إلى التحري والدقة، وزيادة في الحرص

(١) حيون الأثر ٢٤٢/١

(٢) ابن سعد في الطبقات الكبرى ١٢/٢، سيرة ابن هشام ٦٠٤/١

(٣) سيرة ابن هشام ٦٦٦/١، وابن كثير ٢٦٤/٣ في البداية والنهاية، ط بيروت، المعارف.

(٤) الإصابة لابن حجر: ٧٠/١، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١١٢/١

(٥) الإصابة: ٣٠٢/١، الاستيعاب: ٣١٦/١

والأكد وذلك عن طريق تعدد المصادر، ومقارنة الأحبار بعضها ببعض، ورسم
الحطة على أساس هذه الأخبار والمعلومات

وقد استعمل العيون والحواشيس - في نقل الأحبار - الرسائل لمكتوبة
والرسائل الشفهية، عن طريق الأعوان، أو عن طريق المشاهدة والرؤية.

وتدلالة على مدى قوة الاستخبارات الإسلامية. أن المسلمين بعد معركة
أحد كانوا يتوقعون أن تقوم بعض القبائل العربية الوثنية باستغلال الفرصة،
وتهاجم المدينة، لكن العيون الإسلامية لم تكن غافلة عما يدور بين هذه
القبائل، إذ كانت نقل ما يدور إلى القيادة في المدينة أولاً بالأمر الذي
مكن للمسلمين من صرب هؤلاء وتفريقهم^(١) كذلك عرف سليط بن عمرو
سنة فرش في بعض طريق تحارثهم، وكان سليط يحالطهم ويحاربهم،
فأسرع وأبلغ الرسول - ﷺ - بالأمر، فتمكن المسلمون منهم.

وكذلك الحال في عروه الحديق، حيث علم المسلمون من عيونهم في مكة
والقبائل سنة فريش وحلفائها في عرو المدينة، فأمر الرسول ﷺ بحرب
الحديق، الذي كان معانداً للعدو، وهذا لا يدل على عجز عيون العدو عن
معرفة ما يدور في المدينة فقط، ولكن يدل على مدى إحكام المسلمين
ودقتهم وبحاحهم في منع سرب مثل هذه الأحبار إلى أعدائهم، رغم
العمل في الخلق استمر حوالي عشرين يوماً^(٢).

وعلى العموم فقد وُصِفَ الأحراب إلى المدينة ومعانئهم بالحديق أحدوا
يتحرشون بالمسلمين الذين كانوا يقومون بدورهم باتحاد الاحتياطات اللازمة
لمنع لأحراب من تحقيق أهدافهم، فشوا العيون والطلائع، وكذلك
لحراست وقد روي أنه في يوم الأحراب قام الربيع بن العوم باستطلاع
خير العدو^(٣).

(١) تاريخ الطبري: ٤٧/٢، ط دار صادر

(٢) ياقوت حموي، ط الثانية ٥٧

(٣) المدخل إلى المدينة والاستراتيجية العسكرية ص ١٤٥، ط الهيئة العامة للكتاب المصري

وكذلك كلف الرسول - ﷺ - حذيفة بن اليمان ليأتي بخير الأحزاب وأوصاه. (ألا تومي بسهم، ولا حجر، ولا تضرين بسيف، حتى تأتيني.) فانطلق حذيفة ودخل في صفوف الأحزاب، وعلم ما هم عليه من شدة وحوف، وعزم على الرحيل فانطلق عائداً، وأحبر الرسول خبر الأحزاب وبعد فتح مكة علم المسلمون أن قبيلة هوازن وثقت نيتهم إليه لغزو حديبه، فأرسل عليه السلام عبدالله بن أبي حذرد الأسلمي^(١) يستطلع الخبر.

وبذكر ابن هشام أن النبي - ﷺ - عندما سمع خبر القوم بعث إليهم عبدالله بن أبي حذرد، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم، حتى يعلم عندهم، ثم تأتيه بحبرهم ويصق، ودخل في وسطهم، وأقام فيهم، وعلم أمرهم من عزمهم على حرب المسلمين، ثم أقبل على رسول الله - ﷺ - فأخبره خبر القوم^(٢)

وعنى هذا فقد كان رسول الله - ﷺ - جهازاً مستطلاعاً قوياً، ومحاربتاً مستعدة لتوصيل كل أمر إلى رسول الله ﷺ وكسراً متتريين - كدبت - في القبائل والمدن. فكان في مكة - مثلاً - العباس بن عبدالمطلب، وكذلك شير بن سفيان البعكي^(٣)، وفي القنائل فقد كان عبد الله بن أبي حذرد لأسلمي من هوازن، وكذلك عيسى الحراعي^(٤)، وغيرهم وغيرهم

وهذا الحشد لأحباري عن عيون رسول الله - ﷺ - يدل دلالة قطعية على وجوب أن يكونوا مسلمين في ديارهم جهازاً قوياً قادر على كشف ما يبيت لأعداء المسلمين من عذر، وما يعدون من محطصات وعده واعتاد لصرب المسلمين وخرابهم وحداعهم، وإذا تأمل الإنسان في أمر ما كان عليه الرسول

(١) تاريخ الطبري، ٧٣/٣

(٢) الطبري ٧٣/٣، الإصابة لابن حجر ٩٤/٢، ط السعدي

(٣) الأمصط ١٧٧/٩

(٤) ولد العماد ١٤١/٢

ﷺ - وهو يتزل عليه الوحي، ويأتيه خبر السماء، ثم ينظر إلى هذه الاستعدادات القوية في هذا لحاجت يقول فما مائد لا تناسي رسول الله ﷺ - ولا تأخذ بما سها إليه الأفراد الكريم في بيته الكثيرة من الحذر والاستعداد؟ وهو واجب لحماية الحلة والأمة والحرمة.

وقد كان هذا من المهام التي حرص المسلمون عليها بعد رسول الله ﷺ وأوصى بها لخدماء، وجاء في رساله بعث بها أصحابي الحبيب حبيبه المسلمين وأمرهم عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - إلى القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بأمره فيها بالتحاد العيون فقام ورد وصفت أرض العدو فذلك العيون بيت وبينهم، ولا تحف علبت أمرهم. وليكن عندك من العرب أرض من أرض من تظمت إلى مصحه وصدقته، فإن الكدوب لا يعمت حبره، وإن صدقت بعضه، والعاش عيب عيبك، وليس عيبك، وليكن بيت عبد ذبوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع بيت وبينهم، وستق لطلائع من أهل لرأي والناس من أصحابك، وتحير بهم سويك حيل، وحصل أمر لسري إلى أهل الجهاد والصبر الجلال، ولا يحص بها أحدا تهوى، فتطيع من ريت وأمرت أكثر مما حابيت به أهل حاصت نعم من ذلك أن الطلائع والعمون كانا من أهم الأمور الأمنية والعسكرية عند المسلمين، وكان لهما شأن كبير يهتم به القواد والخلفاء.

المطلب الخامس

التجسس وإفشاء السر المباح

جعل للإسلام لمسلمين حرمة، ولأسرارهم كرامة، فإذا أهدر بعضهم حرمة نفسه بأمر وفعل معصية كان في السر عليها نظر، هذا وقد شرط الإمام سوي أن يكون مستور عليه ممن ليس معروفا بالأذى والإفساد فأن المعروف الأذى

(١) المدونة العسكرية العسكرية ص ٢٩٤

والفساد فيستحب ألا ستر عليه، لأن السر عليه يطمعه في الإبداء والفساد،
وانتهالك الحرمات، وجسارة غيره على مثل الفعل وإنما يراد الأمر إلى ولي
الأمر إن لم يخف من مفسدة يؤدي إليها هذا الإعلان.

هذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت، أما معصية رؤي عليها وهو بعد
مستتر بها فتجب المادرة بإنكارها عليه، ومنعه منها على من قدر على ذلك،
ولا يحل تأخيرها فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر، إذا لم ترسب على ذلك
مفسدة. هذا يعد من النصيحة الواجبة وليس من الغيبة^(١).

وقال الإمام كمال بن الهمام من الحنفية في فتح القدير المستر قد يكون لمصر
ثم يعتد المعصية ويتهتك بها. أما إذا وصل الحال إلى إشاعتها وانتهت بها بل
بعضهم افتخر بالذنب فيحب كون إفشاء سره والشهادة عليه أولى من تركه،
لأن المطلوب إحصاء الأرض من المعاصي والفواحش بالخطوات المفيدة
لذلك. وذلك يتحقق بالتوبة من الفاعلين، والرحم لهم، فإذا ظهر حال لشبه
في الزنى - مثلاً - والشرب، وعدم الصلاة به، وإشاعته - بإحصاء الأرض
المطلوب إما أن يكون بالتوبة، فإذا لم يكن أو يحصل فيجب تحقيق نسب
الآخر بالإحصاء، وهو المحدود. بخلاف من زنى مرة أو مراراً متخوف متدبر
عليه، فإنه محل استحباب الستر المشاهد^(٢).

إذن، فالمعروف بالأذى والفساد والمتعود على ذلك وكذلك المجاهر الذي
فصح منه، وأراد إشاعة الفاحشة أو الافتحار بها لا ستر له، لأنه أحل بمقصود
الستر، وكشف ستر منه، فلا ينتظر أن يستره أحد، ولأنه كما يقول كمال بن
الهمام مطلوب إحصاء الأرض من المعاصي والفواحش التي تؤدي المسلمين،
وتنوث مجتمعهم. وهذا هو مفهوم الحديث الشريف الذي ذكرناه بعد «من أتى
من هذه القادورات شيئاً فاستتر به فهو في ستر الله، ومن أتى لما صمته أفض
عليه الحد».

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي ١٣٥/١٦، فتح الباري لابن حجر ٩٧/٥

(٢) فتح القدير ١١٤/٤، ط المراجعة

وكذلك من أئدى صحته نكهر أو ردة، أما من استتر فهو في سنن له
كذلك قال الحطمي الشتر هو في العواش المسنر بها، التي لا تحرج
من المنة، فأما إذا سمع مسلماً يتكلم بكلام الكفر فعرف به أنه من المنافقين
فلا سعي أن يستر عليه، ليعلم المسلمون أنه خارج من حملتهم، وثلاً
يعتبر بما يطهره لهم، فسكحوه، أو يأكلوا ديبحه، أو يصلوا حلقه، أو
يوصي أحد منهم بولاية أطفاله، ولأن من أظهر الكفر رائب حرمه، فإن
لحرمة بما أوحى سننه إنما كان للدين المعاطي له، فإذا لم يكن دين فقد
زالت العلة. والله أعلم^(١).

إباحة الأسرار من أجل الزواج:

لا شك أن من يريد الزواج يرغب في أن يتحرى، ويجمع المعلومات من لثقت
عن يريد بزوج بها، وعن أسرته، فإذا وجد بعينه وطلبته في هذه الأسرة تقدم
خاطباً، كما أن من حق العنة وأسرته أن يتحرى عنه قبل أن تستجيب إلى طلب
ذلك لخطب، وإذا سم ذلك ورصي الطرفان - كل عن صاحبه - كان انعقد
ويجوز للمسؤول أن يقول ما يعرف عن الخاطب أو عن المخطوبة

قال لقرطبي ونحو العبة إذا كان في ذكره بأسوء فائدة كقوله ﷺ
لداصة بنت قيس لما جاءت تطلب مشورته في خاطبها معاوية وأبي جهم
بن حديفة قال أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يصح
عصاه عن عاتقه^(٢)، فرسول الله - ﷺ - وهو يعلم مكانة فاطمة بنت قيس
يريد أن يصورها وكنت رصي الله عنها ذات حمان وعقل وكمال،
ومما يدل على مكانتها الاجتماعية أن أصحاب الشورى عند قتل عمر بن
خطاب رصي الله عنه - اجتمعوا في بيتها^(٣) لذلك عرفها رسول الله -
ﷺ - بما في خاطبها من نقائص، حتى تكون على بينة من أمرها.

(١) المهاج في شنب الإيمان ٣/٣٦٤

(٢) أحكام القرآن لقرطبي ١٦/٣٤٠

(٣) الاستيعاب ١/٣٨٣

ومن هذا: إذا توجه الحاطبان إلى الطبيب ليكشف عن سلامتهما وتناسب تركيبهما تناسلياً، حتى لا يترتب عليه تشوه أو اختلال في النسل، وفي كشف صهرت هناك عيوب في أحد الحاططين فللطبيب أن يحذر بذلك، ولا شيء عليه، لأنه مؤمن، ولأن هناك مصلحة، فإذا ركب ما علم كان هذا شأنهما.

وكذلك إذا أُرست شركة - مثلاً - أو مصلحة أحد الموصفين فكشف عليه، حتى يظهر نفاقه للعمل، فظهر عدم نفاقته، فله أن يقول بذلك، ولا شيء عليه، بل سعي له أن يقول وقد تنحلى إذا أراد عن التفريغ والنسأة برمتها، وهذا شأنه وكذلك إذا كان هالكاً مريضاً معد سيئته في المجتمع - كالأسير وغيره - وسبصر روحه وأحرى به أن يذكر ذلك وكذلك إذا علم لطبيب أن مريضه في موقع حساس «كقطار مثلاً» وأنه مدمم محدرات، ويؤدي هذا إلى أضراره فله أن يبلغ المسئولين والسلطات لاتخاذ اللازم.

التجسس على من يريد خطبتها.

لا شك أن رؤية المحظونة والعدم بأحوالها من الأشياء المهمة التي يجب أن يسعى الإنسان لتحصيلها، فقد صح أن الصغيرة من شعبة حصص امرأة من لأبصار فقل له النبي ﷺ: «أذهب فانظر إليها، فيه أجرى أن يؤدم بينكم»^(١)، ولا شك أن نظر الرجل إلى من يريد تزوجها ورصده بها من أسباب حصول الألفة، وهذا أدعى إلى الوفاق ودوام العشرة.

فإذا لم استطع أن أبصر إليها - حسب ما - في بيتها فهل به أن يتجسس عليها ليرى منها أو ليعلم أفعالها؟

عن حابر بن عبد الله: أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليعمل»^(٢).

(١) رواه النسائي، وابن ماجه، والترمذي

(٢) رواه أبو داود

قال جابر . فخطبت جارية من بني سلمة ، فكنيت أختي لها ، حتى رأيت منها بعض ما دعاني إلى نكاحها ، فتزوجتها .

ولست أرويه مقصوده على الرجل . بل للمرأة أيضا . أن تنظر إلى حاصيها فيه بعينها من مثل ما يعجبه منها ، بل هي أولى بذلك . كما لها أن تطلب معرفة شيء عن أحواله الطاهرة والباطنة .

خاتمة :

رأيت في هذا البحث كيف أن الإسلام قد صان الأسرار ، وحرم التحسس ، وحفظ بكرمة ، وجعل هاتك مساحة كبيرة مستورة ، تكون بين العبد وربه . يراجع فيها نفسه ، ويحلل فيها صغيره ، ويسر ستر الله سبحانه وتعالى ، دون ذنب من ذنب الله عليه ، وإن أقبل إلى الله بمعصيته فأمره بيه إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه .

ولحصارة الإسلامية حصارة إنسانية ، تعامل مع الإنسان ، ومع مشاعره ، ونس هاتك أفضل من ذلك الإنسان ، فكل شيء في خدمته وسعدته ، ومسحرفه وراحته . فلقانون في خدمته ، والسيطة في خدمته ، والامادة في خدمته ، وسره لا سلطان لأحد عليه .

إذن ، وحصارة الإسلامية تخالف حصارة المادة التي تجعل الإنسان ترسا في عينة الحياة ، أو حصانا يجر عربتها ، أو دمية تلعب بها الأهواء والسياسات ، أو عبدا للسادة والكبراء .

لقد لعبت الحصارة العربية - اليوم - بالإنسان شعورا ونفسا ودنا ، وفردته حتى من ثيابه ، وفضحته حتى في عقر داره ، وهتكت سره حتى مع زوجته ، وحرعت لذلك الوسائل وروحيتها واسلكها كل إنسان ، حتى بنت الإنسان يحشى على نفسه من سره ، ويشفق على مستقبله من تفكيره ، فدررب نفسه على الطاق ، وعود نفسه على التعثر ، ومررها على الصياح ، لأنه يعلم أن لا رجعه في خطأ ، ولاستر في عيب ، ولا رحمه في خطيئة . مع أن الإسلام شجع أصحاب الأخطاء بالسر والتوبة ، وأصحاب الهم بالسيئات بالتوب . إذا

رجعوا عنها، فقال - ﷺ - ومن هم بيعة ولم يعملها كتبت له حسنة. ^(١)
﴿وَأُولَئِكَ يَدْعُ اللَّهُ مَبِيتَهُمْ حَسَنَةً﴾ ^(٢) وأصحاب القروف بالغفران ﴿قُلْ
يَعَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الدُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْعَافُونَ الرَّحِيمُ﴾ ^(٣)

والإنسان المتجسس على صاحب الذنب: هو المذنب، وهو المعاقب، وهو
المجروح إذا وقع في عرص أحبه غير دليل مؤكد، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ
لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْسِقُونَ﴾ ^(٤) وأباح الإسلام التجسس حينما أباحه إنما كان للحفاظ على
حرية الإنسان من أن تنتهك عقيدته، أو نستباح دياره، أو يعتدى على نفسه أو
ماله أو عرصه، ولم يترك ذلك غير شروط أو صوابط شرعية، وإنما حدها
وبينها، حتى لا تتخذ ذريعة للاعتداء والإهلاك والمضيعة.

(١) رواه مسلم - رمع ١٢٨، ١٢٩ في الإيمان، والبخاري بمعناه في التوحيد ٣٩١/١٢، وجامع لأصول
١٩/٩

(٢) الفرقان - ٧٠

(٣) الزمر - ٥٣

(٤) النور - ٤

المراجع

- ١ - حاشية ابن عابدين - محمد أمين بن عابدين - بولاق.
- ٢ - إحياء علوم الدين - الغزالي - المعرفة.
- ٣ - الأحكام السلطانية - أبو يعلى - بيروت.
- ٤ - الأحكام السلطانية - الماوردي - التوفيقية.
- ٥ - الاستيعاب - ابن عبد البر.
- ٦ - الإصابة في معرفة الصحابة - ابن حجر - السعادة.
- ٧ - بدائع السلك في طبائع الملك - محمد بن الأزرقي الأندلسي - الدار العربية للكتاب.
- ٨ - البداية والنهاية - ابن كثير - المعارف - بيروت.
- ٩ - تاريخ اليعقوبي - اليعقوبي - دار صادر.
- ١٠ - تبصرة الحكام - علي بن فرحون - الطبعة الأخيرة سنة ١٩٥٨.
- ١١ - تحفة الأخوذي في شرح جامع الترمذي - الميالكفوري - محمد عبدالمحسن الكتبي.
- ١٢ - تحفة المحتاج بهاشية الشرنواني - الشرنواني - دار صادر.
- ١٣ - الترغيب والترهيب - المنذري - الحلبي.
- ١٤ - تفسير ابن كثير - ابن كثير - المعرفة.
- ١٥ - تفسير الزمخشري - الزمخشري - بيروت.
- ١٦ - تفسير القرطبي - القرطبي - دار الكتب المصرية.
- ١٧ - جامع الأصول - ابن الأثير.
- ١٨ - جامع الترمذي - أبو عيسى محمد بن عيسى بن حورة - مصطفى الحلبي.

- ١٩ - جمع الجوامع - جلال الدين السيوطي - الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية. حاشية ابن عابدين - محمد أمين بن عابدين - بولاق.
- ٢٠ - الحاكم - الحاكم - دائرة المعارف العثمانية.
- ٢١ - الحرب النفسية - صلاح نصر - دار القاهرة للطباعة.
- ٢٢ - حلية الأولياء - أبو نعيم - بيروت.
- ٢٣ - حياة الصحابة - دار القلم.
- ٢٤ - الخراج لأبي يوسف - أبو يوسف - الطبعة الرابعة - القاهرة سنة ١٣٦٢ هـ.
- ٢٥ - الدوافع النفسية - د. مصطفى فهمي - مكتبة مصر.
- ٢٦ - روح المعاني - الألوسي - ط دار الفكر.
- ٢٧ - زاد المعاد - ابن القيم - بيروت.
- ٢٨ - الزواجر لابن حجر - ابن حجر الهيتمي - مصطفى الحلبي.
- ٢٩ - الزيلعي - عز الدين عثمان الزيلعي - دار المعرفة - بيروت.
- ٣٠ - سنن أبي داود بشرح عون المعبود - سليمان بن الأشعث السجستاني.
- ٣١ - سنن بن ماجه - محمد بن يزيد القزويني - عيسى البابي الحلبي.
- ٣٢ - سنن البغوي - البغوي - دار بدر.
- ٣٣ - سنن الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي - الحلبي.
- ٣٤ - سنن الدارمي - أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي - شركة الطباعة الفنية.
- ٣٥ - سنن النسائي - أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب - ط. الهند.
- ٣٦ - السير الكبير - محمد بن الحسن - شركة الإعلانات.
- ٣٧ - سيرة ابن كثير - ابن كثير - الحلبي.

- ٣٨ - سيرة ابن هشام - ابن هشام - الحلبي .
- ٣٩ - شرح إحياء علوم الدين - الزبيدي - الحلبي .
- ٤٠ - شرح السنة للبغوي - الإمام البغوي - دار بدر .
- ٤١ - صحيح مسلم - شرح صحيح مسلم - النووي - المطبعة المصرية .
- ٤٢ - شرح منتهى الإرادات - ابن النجار - مكتبة العروبة .
- ٤٣ - شرح المنهاج بحاشية البجيرمي - جلال الدين المحلي - البجيرمي - مصطفى الحلبي .
- ٤٤ - شعب الإيمان - السيوطي .
- ٤٥ - صحيح البخاري - أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري - ط الشعب .
- ٤٦ - صحيح مسلم - الإمام مسلم بن الحجاج القشيري - عيسى الحلبي .
- ٤٧ - الطبقات الكبرى لابن سعد - ابن سعد - بيروت للطباعة والنشر .
- ٤٨ - عمدة القاري - بدر الدين العيني - ط المنيرية .
- ٤٩ - عيون الأخبار - ابن أبي أصيبعة .
- ٥٠ - عيون الأثر - ابن سيد الناس - بيروت .
- ٥١ - غزوة بدر - باشميل - ط . الثانية .
- ٥٢ - فتح الباري - ابن حجر - المعرفة .
- ٥٣ - فتح العلي القدير - عيش - ط . المعرفة .
- ٥٤ - فتح القدير - ابن الهمام - بيروت - بولاق .
- ٥٥ - القروق في اللغة - أبو هلال العسكري - بيروت .
- ٥٦ - فن إدارة المعارك - محمد نمر - دار الفكر العربي .
- ٥٧ - الفن الحربي في صدر الإسلام - عبدالرؤوف عون - المؤسسة المصرية العامة .

- ٥٨ - فيض القدير - المناوي - المكتبة التجارية - بيروت .
- ٥٩ - قلوبوي وعميرة - عيسى الحلبي .
- ٦٠ - الكامل في التاريخ - ابن الأثير .
- ٦١ - كنز العمال - المكتب الإسلامي .
- ٦٢ - لسان العرب - بيروت .
- ٦٣ - مجمع الزوائد - نورالدين علي بن أبي بكر الهيثمي - مكتبة القدس .
- ٦٤ - المختار من كتاب تدبير الدول - ابن نيانة - مخطوط كلية الشريعة - الأزهر .
- ٦٥ - مختصر زاد المعاد - ابن عبد الوهاب - ط . المكتب الإسلامي .
- ٦٦ - المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية - اللواء جمال الدين محفوظ - الهيئة العامة للكتاب العربي .
- ٦٧ - المدرسة العسكرية - محمد فرج - دار الفكر العربي .
- ٦٨ - مسند الإمام أحمد - الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي .
- ٦٩ - المصباح المنير - الفيومي - دار المعارف - مصر .
- ٧٠ - المعجم الكبير للطبراني - الطبراني الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني - ط . وزارة الثقافة - العراق .
- ٧١ - الحفني - ابن قدامة - المنار .
- ٧٢ - مفتي المحتاج - للخطيب الشريفي - مصطفى الحلبي .
- ٧٣ - المنهاج في شعب الإيمان - الحلبي .
- ٧٤ - موطأ الإمام مالك - الإمام مالك - المكتبة العلمية .